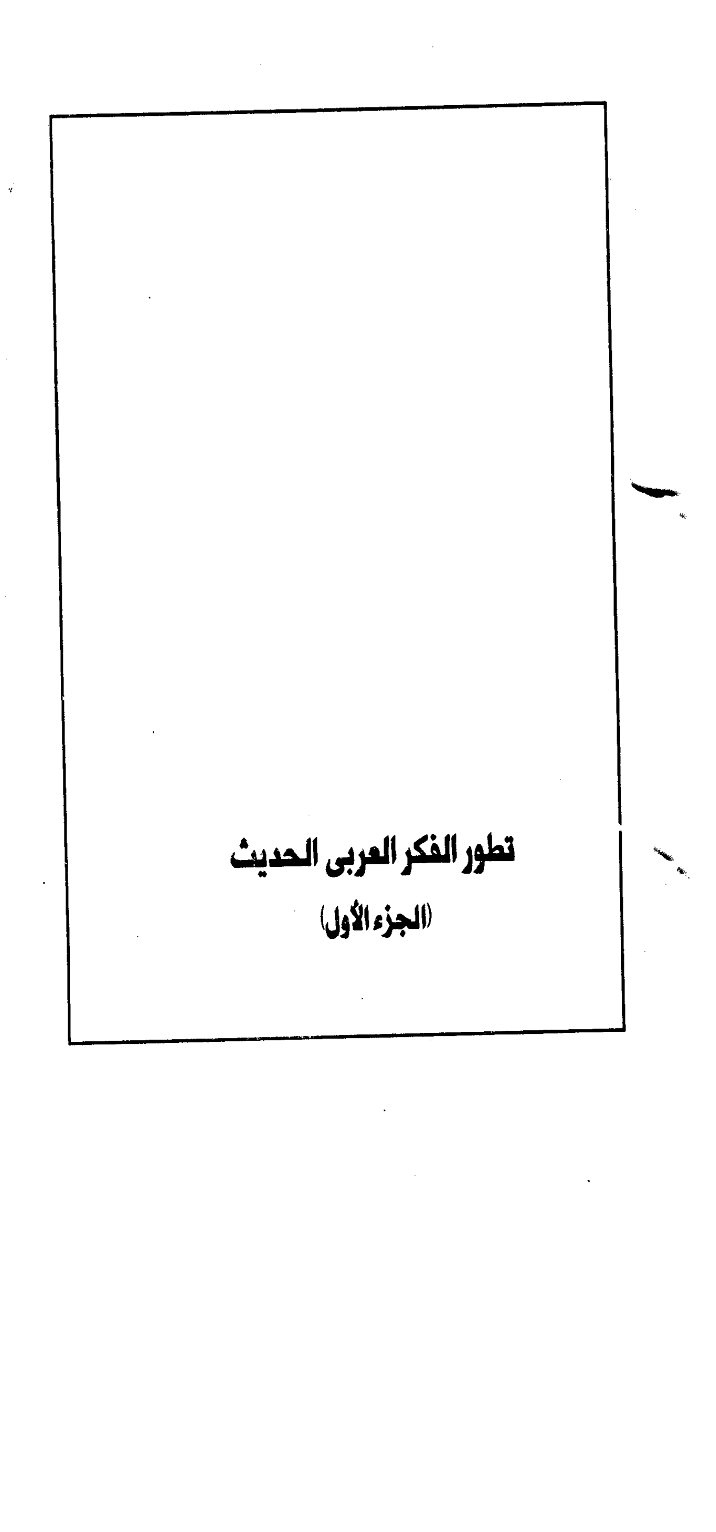


تطور الفكر العربى الحديث

(الجزء الأول)



مهرجان القراءة للجميع ٩٦

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(التنوير)

تطور الفكر العربى الحديث
(الجزء الأول)
د. عبد السلام محمد الشاذلى

الغلاف
الانجاز الطباعى والفنى
محمود الهندى

المشرف العام
د. سمير سرحان

الجهات المشتركة:
جمعية الرعاية المتكاملة المركزية
وزارة الثقافة
وزارة الإعلام
وزارة التعليم
وزارة الحكم المحلى
المجلس الأعلى للشباب والرياضة
التنفيذ: هيئة الكتاب

تطور الفكر العربى الحديث

(الجزء الأول)

د. عبد السلام محمد الشاذلى

على سبيل التقديم...

لأن المعرفة أهم من الثروة وأهم من القوة فى عالمنا المعاصر وهى الركيزة الأساسية فى بناء المجتمعات لمواكبة عصر المعلومات.. من هنا كان مهرجان القراءة للجميع دلالة على الرغبة الطموحة فى تنمية عالم القراءة لدى الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً ورجالاً ونساءً..

وكان صدور مكتبة الأسرة ضمن مهرجان القراءة للجميع منذ عام ١٩٩٤ إضافة بالغة الأهمية لهذا المهرجان كأضخم مشروع نشر لروائع الأدب العربى من أعمال فكرية وإبداعية وأيضاً تراث الإنسانية الذى شكل مسيرة الحضارة الإنسانية مما يعتبر مواجهة حقيقية للأفكار المدمرة.

هكذا كانت مكتبة الأسرة نافذة مضيئة لشباب هذه الأمة على منافذ الثقافة الحقيقية فى الشرق والغرب وعلى ما أنتجته عبقرية هذه الأمة عبر مسيرتها التنويرية والحضارية..

إن مئات العناوين وملايين النسخ من أهم منابع الفكر والثقافة والإبداع التى تطرحها مكتبة الأسرة فى الأسواق بأسعار رمزية أثبتت التجربة أن الأيدى تتخاطفها وتنتظرها فى منافذ البيع ولدى باعة الصحف لهو مظهر حضارى رائع يشهد للمواطن المصرى بالجدية اللازمة والرغبة الأكيدة فى الإسهام فى ركب الحضارة الإنسانية على أن يأخذ مكانه اللائق بين الأمم فى عالم أصبحت السيادة فيه لمن يملك المعرفة وليس لمن يملك القوة.

وللعام الثالث تواصل مكتبة الأسرة إشعاعها الثقافى حيث تقدم هذا العام ١٧٢ كتاباً فى سبع سلاسل يصدر منها ما يقارب ١٨ مليون نسخة كتاب فى أضخم مشروع ثقافى قومى تشهده مصر الحديثة..

د. سمير سرحان

ظهور الفكر العربي الحديث في مصر :

(أ) خضعت مصر في مستهل القرن السادس عشر للسيطرة العثمانية ، حيث هزم الجيش التركي بقيادة السلطان سليم الأول جيش المماليك البحرية في موقعة مرج دابق عام ١٥١٧ م · وخلص للعثمانيين أمر مصر ·

ورجع السلطان العثماني الى بلاده وفي حوزته غنائم الفتح ·· وكان من أهم تلك الغنائم أسر « المتوكل على الله » ابن المستمسك بالله يعقوب ، آخر خلفاء بني العباسي الذين فروا الى مصر منذ أن دمر « هولاكو » التتري حفيد « جنكيز خان » دار الخلافة ببغداد في عام ١٢٥٨ م · وبذلك انقطعت المبايعة والخلافة لبني العباسي واقتصر أمرها على آل عثمان ·

وفقدت مصر بخضوعها للسيطرة العثمانية وبنفي الخليفة العباسي منها زعامتها الدينية في الشرق الاسلامي · وشعر المصريون بالأسف العميق لخروج أمير المؤمنين من ديارهم العامرة ·

ويصف ابن أياس في كتابه « بدائع الزهور » هذه الحوادث بقوله (خرج أمير المؤمنين المتوكل على الله قاصد السفر الى اسطنبول ··· فحصل للناس على فقد أمير المؤمنين من مصر غاية الأسف وقالوا قد انقطعت الخلافة من مصر وصارت باسطنبول وهذه من الحوادث المهولة) (١) ·

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور الجزء الثالث المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق مصر ١٣١٢ هـ · ص ١٢٠ ·

ووقع فى أسر الفاتح العثمانى العديد من طوائف العلماء والقضاة والأعيان والتجار وأرباب الصنائع • وكانت تلك الطوائف وخاصة طائفة التجار وأرباب الصنائع من أهم مميزات المرحلة الثالثة والأخيرة من القرون الوسطى • وهى المرحلة التى ترجع بدايتها الى القرن السادس عشر ، وتنتهى فى أواسط القرن السابع عشر •

وكما فقدت مصر زعامتها الدينية للشرق الاسلامى بنفى الخليفة العباسى فى ذلك الوقت ، فقدت أيضا زعامتها الحضارية والعمرانية فى نهاية القرون الوسطى لبلاد الشرق •

فلقد (رسم الدفتر دار باخراج طائفة من اليهود (*) ممن كان تعين الى السفر الى اسطنبول فخرجوا جملة واحدة فنزلوا فى المركب وتوجهوا الى ثغر الاسكندرية الى أن يمضوا الى اسطنبول فأخذوا نساءهم وأولادهم ومضوا ، وفى عقب ذلك خرجت طائفة من البنائين والمهندسين والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين وفيهم البعض من النصارى وطائفة من الفعلة ••• وخرج الى السفر لاسطنبول طائفة أخرى من نواب القضاة وغير ذلك من التجار والأعيان من مشاهير الناس ••• وكانت هذه الواقعة من أبشع الوقائع المنكرة التى لم يقع لأهل مصر قط مثلها فيما تقدم من الزمان وهذه عبارة عن أسر المسلمين ونفيهم الى اسطنبول ••• ومن حين فتح عمر ابن العاص مصر لم يقع لأهلها شدة أعظم من هذه الشدة) (١) •

(★) لقد كان لليهود فى نهاية العصور الوسطى أهمية بالغة بالنسبة للفاتح العثمانى ، وذلك لتخصصهم فى الأعمال التجارية القائمة على الربا ، وكانت أموالهم محط نظر الفاتح العثمانى •

(١) ابن اياس : بدائع الزهور ، جـ ٣ • ص ١١٩ •

ويقدر ابن اياس عدد هؤلاء الأسرى بقوله (وقيل ان عدد من خرج من أهل مصر الى اسطنبول ألف وثمانمائة انسان) (١) ٠٠ وفقد من مصر وقتئذ (نيف وخمسون صنعة) (٢) ٠

ولم يترك السلطان العثمانى فى مصر سوى شرذمة من صعاليك الجراكسة ، وأبنائهم الذين قد عفا عمن بقى منهم بعد أن توطدت له شئون البلاد ٠

ويصف الجبرتى هذه التركة بقوله (ولما خلص له أمر مصر عفا عمن بقى من الجراكسة وأبنائهم ولم يتعرض لأوقاف السلاطين المصريين بل قرر مرتبات الأوقاف والخيرات ٠٠٠ ورتب للايتـام والمشايخ والمتقاعدين ومصارف القلاع والمرابطين) (٣) ٠

وسرعان ما تحالف الوالى العثمان بمصر مع بقايا الجراكسة والسلاطين المصريين على قهر الشعب المصرى ونهب مقدراته ماديـا ومعنويا فعندما (اشيع أن السلطان سليم شاه خلع على وزيره يونس باشا وقرره نائبا عنه بمصر وأعمالها ٠٠ ظهر جماعة كثيرة من المماليك الجراكسة وتزينوا بزى العثمانيـــة ولبسوا الطراطير والقفاطين الحرير وصاروا يخالطون العثمانية ويركبون معهم فى الأســـواق بطول النهار) (٤) ٠

وبعدما انتقلت ادارة البـلاد الى أيدى المماليك ، فقـد نائب السلطان العثمانى فى مصر سلطته الفعلية ٠ وأصبح على بك الكبير فى عام ١٧٦٣ الحاكم الفعلى للبـلاد ٠٠٠ ولقد استطاع بعد مضى

---

(١) المرجع نفسه ص ٢١٢ ٠

(٢) عبد الرحمن الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ٠ الجزء الأول المطبعة الشرقية بمصر سنة ١٣٢٢ هـ ٠ ص ٢١ ٠

(٣) الجبرتى : عجائب الآثار جـ ١ ٠ ص ٢١ ٠

(٤) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ٠ ص ١٢٢ ٠

ست سنوات من حكمه أن يعلن فى عام ١٧٦٩ استقلال مصر عن الدولة العثمانية ٠

ولكن محمد بك أبو الذهب استطاع أن يوقع سيده أسيرا فى موقعة الصالحية عام ١٧٧٣ وهو نفس العام الذى توفى فيه على بك الكبير وسرعان ما عادت البلاد لسيطرة المماليك بزعامة مراد بك وابراهيم بك ٠

واستطاع الشعب المصرى بزعامة العلماء أن يقف فى وجه الأعمال اللصوصية لمراد بك وابراهيم بك ٠ الى أن تمكن من انتزاع « حجة » مكتوبة ، تنص على وقف تلك المظالم من جانب الأمراء المماليك ٠

ان ظهور الفكر العربى الحديث فى مصر : السياسى والاجتماعى والثقافى يرتبط بالظروف التاريخية المشار اليها آنفا ، حيث نرى أن جنين الفكر العربى الحديث فى مصر يكمن فى أحشاء المرحلة الأخيرة من القرون الوسطى ٠

ورغم ما تتصف به تلك الفترة من انحطاط ولبس وغموض ، فانه يجب علينا أن نستشف من وراء سحب تلك الفترة التاريخية وظلامها ، ومضات الفكر الخلاق ، وشرارة العقول الذكية التى ستنير لنا الطريق أمام مسيرة الفكر العربى الحديث فى مصر ٠

فثمة رابطة مستمرة فى هذا التاريخ الفكرى المصرى ، يجب التعرف عليها ، والتحقق منهـا ، حتى نتجنب الوقوع فى أخطاء تاريخية شائعة ٠٠ أخطاء تحجب بيننا وبين الرؤية الحقيقية لمسيرة الحركة العقلية العربية فى مصر ٠

وعلينا بادىء ذى بدء ، خاصة عند التماس خط التطور الذى يربط بين المرحلة الأخيرة من القرون الوسطى وبداية العصر الحديث، أن نتجنب كليــة استخدام المصطلحات التاريخيــة التى لاتعبر عن حقيقة المضمون التاريخى لتلك المرحلة من مراحل اليقظة المصرية .

فالحركات الشعبية التى قام بها بعض زعماء الطوائف والفئات الاجتماعية فى مصر ضد الوالى العثمانى ، وزعماء المماليك لا ينطبق عليها تماما مصطلح الثورة الاجتماعية .

وكذلك فان الحركات الانفصالية التى قامت فى مختلف أقسام البلاد العربية ، مطالبــة بالاستقلال عن الدولة العثمانيــة كحركة على بك الكبير بمصر فى عام ١٧٦٩ ، لايمكننا أن نطلق عليها مصطلح الثورة بمعناه الحديث ، وهو المعنى الذى يشير الى أن الثورة حركة اجتماعية شاملة تستهـدف الاستيلاء على سلطة الدولة من أجـل أحـداث تغيير شامل وجـذرى فى البنــاء السياسى والاجتمــاعى والاقتصادى والثقافى .

فثمة فروق محددة المعالم بين الهبات والانفجارات الاجتماعية وبين الثورة الاجتماعية وكذلك بين حركات التمرد والعصيان ضد سيطرة دولة ما على بعض الولايات التابعة لها وبين الثورة السياسية ــ الاجتماعية .

ومما لا جـدال فيه ان هذه الهبات الاجتماعيــة والحــركات الانفصالية السياسية قد صاحبها بعض أنواع من الفكر الاجتماعى والرأى العام السياسى .

فالحركات الانفصالية التى قامت فى بعض الولايات العربيه ضد السيطرة العثمانية ، كانت تعبر عن بعض مظاهر نمو الوعى السياسى .. ولم يكن ذلك مرتبطا بمجىء الحملة الفرنسية الى مصر

في عام ١٧٩٨ – كما يزعم بعض المؤرخين – بل كان ذلك قبل مجيء الحملة الفرنسية بمدة تزيد على ربع قرن ٠

ففي عام ١٧٦٩ تمرد على بك الكبير على الدولة العثمانية ، وأعلن استقلال مصر عن الاتراك ، منتهزا فرصة اندلاع الحرب بين روسيا وتركيا خلال الاعوام (١٧٦٨ – ١٧٧٤) ٠ وأخذ في ارسال الجيوش لفتح اليمن والحجاز (واستولى عليهما بسهولة ، وصار يلقب بلقب « سلطان مصر وخاقان البحرين » ثم أرسل قوة عسكرية أخرى لفتح بلاد الشام ، كما أوفد مندوبين للمفاوضة مع روسيا والبندقية ، بغية عقد تحالفات تضمن مصالح الطرفين وقد حدث ذلك قبل مجيء الحملة الفرنسية الى مصر بمدة تزيد على ربع قرن) (١) ٠

ويضيف الأستاذ الحصرى – مع احتفاظنا بالفروق الدقيقة المشار اليها آنفا بين مفهوم الثورة ، ومفهوم حركات التمرد – (ولا حاجة الى القول بأن حدوث ثورة على بك الكبير في مصر قبل الحملة الفرنسية ، وحدوث ثورات عديدة في مختلف أقسام البلاد العثمانية – بعد الحملة الفرنسية على مصر ٠٠ مما يدل دلالة قاطعة على أن عوامل قيام هذه الثورات وهذه الحركات الانفصالية تعود الى أحوال الدولة العثمانية ولا تمت بصلة ما الى الحملة الفرنسية)(٢)٠

والهبات والانفجرات الاجتماعية التي قام بها الشعب المصرى ضد ظلم الوالي العثماني وزعماء المماليك ، كانت تعبر عن بعض مظاهر نمو الوعي الاجتماعي ٠

---

(١) ساطع الحصرى : آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع ٠ ط ٢ بيروت ١٩٦٠ ٠ ص ١٠٧ ٠

(٢) المرجع نفسه ٠ ص ١٠٨ ٠

ففي عام ١٧٩٥ ، أي قبل مجيء بنوبارت الى مصر بثلاث سنوات ، استخلص الأهالى بقيادة علماء الأزهر « حجة » مكتوبة من زعيمى المماليك : مراد بك وابراهيم بك ، نص فيها — كما يحدثنا الجبرتى — على أبطال الحوادث والمظالم التى ابتدعهما المماليك ، وطالبت (بالعدل ورفع الظلم والجور واقامة الشرع) (١) ٠

لقد قاد علماء الأزهر هذه الحركة السياسية والاجتماعية ، حيث (حضر الشيخ السادات والسيد النقيب (*) والشيخ الشرقاوى والشيخ البكرى والشيخ الأمير ٠٠ ودار الكلام بينهم ٠٠٠ وانحط الأمر على انهم (**) تابوا ورجعوا والتزموا بما شرطه العلماء عليهم وانعقد الصلح على أن يدفعوا سبعمائة وخمسين كيسا موزعة ، وعلى أن يرسلوا غلال الحرمين ويصرفوا غلال الشون وأموال الرزق ٠٠٠ ويسيروا فى الناس سيرة حسنة ، وكان القاضى حاضرا بالمجلس فكتب حجه عليهم بذلك وفرمن عليها الباشا وختم عليها ابراهيم بيك وأرسلها الى مراد بيك فختم عليها أيضا وتجلت الفتنة ورجع المشايخ وحول كل واحد منهم وأمامه وخلفه جملة عظيمة من العامة ، وهم ينادون حسب ما رسم ساداتنا العلماء بأن جميع المظالم والحوادث والمكوس بطاله (***) من مملكة الديار المصرية ، وفرح الناس وظنوا صحته وفتحت الأســـواق وسكن الحال على ذلك نحو شهر ثم عاد كل ما كان مما ذكر وزيادة ،ونزل عقيب ذلك مراد بيك الى دمياط عليها الضرائب العظيمة وغير ذلك) (٢) ٠

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ٠ الجزء الثانى ٠ ص ٢٧٤ ٠

(★) يقصد السيد عمر مكرم ٠

(★★) يقصد المماليك ٠

(★★★) كذا بالأصل ٠

(٢) الجبرتى : عجائب الآثار ٠ ج ٣ ص ٢٧٥/٢٧٤ ٠

وتعتبر هذه « الحجة » (نواة أول دستور استخلصته مصر من حكامها فى الأزمنة الحديثة) (١) ٠

واذا كانت نواة الفكر السياسى الحديث فى مصر ، تكمن فى نهاية العصور الوسطى ، وقبل مجىء الحملة الفرنسية الى مصر بثلاث سنوات ، فمن الصعوبة البالغة أن نعلل ظهور الفكر العربى الحديث فى مصر ، بالتعرض المباشر (للتيارات الفكرية والاجتماعية فى الحضـارة الغربية) (٢) أى بظهور حملة بونابرت على مسرح التاريخ المصرى ٠

ويلاحظ الدكتور طه حسين فى دراسته عن«فلسفة ابن خلدون الاجتماعيـة » (انه يكاد يكون مؤكدا أن الترك العثمانيين لو لم يقفوا (*) سير الحركة العقلية فى مصر مدة طويلة كان الذهن المصرى من تلقاء نفسه ملائما للأذهان الأوربية فى الأعصر الحديثة ولاستطاع أن ينال ـ بل أن يقدم ـ قسطه من الرقى العام للحضارة) (٣) ٠

(ب) وتؤكد لنا الوقائع التاريخية على أن الحركة العقلية فى مصر كانت تسير ـ رغم الصعوبات التى فرضتها الدولة العثمانية تجاه تقدم تلك الحركة العقلية والفكرية ـ نحو الاحاطـة بالعلوم الطبيعية والتاريخية التى تراكمت عبر الزمن الطويل من حياة التراث العلمى للشعوب العربية ٠

---

(١) د٠ لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث جـ ١ ط ٣ دار الهلال بمصر ١٩٦٩ ص ٩٥ ٠

(٢) المرجع نفسه ص ١٠ ٠

(*) كذا بالأصل ٠

(٣) د٠ طه حسين : فلسفة ابن خلدون الاجتماعية ٠ ترجمة محمد عبد الله عنان ٠ مطبعة الاعتماد بمصر ١٩٢٥ ٠ ص ١٦٥ ٠

ولم يكن ذلك بالطبع داخل حدود البرامج الرسمية للمعاهد العلمية وقتئذ ، كالأزهر الشريف بمصر • فلقد اقتصرت تلك المناهج الرسمية للأزهر على العلوم السلفية كالعلوم الشرعيــة من تفسير وحديث وفقه ، وكالعلوم اللسانية من نحو وصرف وبلاغة ..

ولكن الاتصال الحقيقى بالقيم الثقافية ، كان نتيجة تجاوز بعض علماء الأزهر لحدود المعارف التقليديه • حيث تحولت بيوت بعضهم الى منازل لدرس العلوم الطبيعية والرياضية والفلكية •

ولكن يجب علينا أن نلاحظ هنــا ، أن الحياة الروحية فى الفترة الأخيرة من القرون الوسطى ، قد اتجهت بصفة عامة سواء من الناحية الفكرية والأدبية الى ناحيتين مختلفتين •

فلقد كان الاتجاه نحو الاحاطـة بالمعارف العلميــة ، يتغلب بصعوبة متناهية على تراكم هائل من النزعات الدينية والصوفية ولم يتخلص بعض الذين اهتموا بالعلوم المنطقيــة والرياضيــة من أثر المباحث الكلامية والعقائدية بصورة نهائية •

وكذلك كان الأمر بالنسبة للحياة الأدبية لذلك العصر .. واذا تجاوزنا الأفق الضيق للأدب الرسمى ، فسوف نرى أن الآداب الشعبية قد اتجهت هى الأخــرى الى ناحيتين مختلفتين : فهنــاك الآداب الشــعبية التى تعنى بالقص الدينى كحياة الأنبياء وســير الأولياء ، وهناك الآداب الشعبية التى تعنى بالحديث عن الأبطال التاريخيين كعنترة والظاهر بيبرس ... الخ ويقدم لنا الجبرتى مادة طيبة فى كتابه « عجائب الآثار » تعكس لنا هذا الانقسام فى الحياة الروحية لهذا العصر •

فعنــدما وصل الوالى العثمانى أحمد باشــا كور الى مصر فى منتصف القرن الثامن عشر (١١٦٢ هـ/١٧٤٨ م) وكان كما يصفه الجبرتى (من أرباب الفضائل وله رغبة فى العلوم الرياضية ولمـا

وصل الى مصر .. قابله صدور العلماء فى ذلك الوقت وهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر والشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمان المنصورى فتكلم معهم وناقشهم وباحثهم ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا وقالوا لا نعرف هذه العلوم ... فقال له (*) الباشا المسموع عندنا بالديار الرومية أن مصر منبع الفضائل والعلوم وكنت فى غاية الشوق الى المجىء اليها فلما جئتها وجدتها كما قيل تسمع بالمعيدى خير من أن تراه فقال له الشيخ هى يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف فقال وأين هى وأنتم أعظم علمائها وقد سألتكم عن مطلوبى من العلم فلم أجد عندكم منها شيئا وغاية تحصيلكم الفقه والمعقول والوسائل ونبذتم المقاصد فقال له نحن لسنا أعظم علمائها وانما نحن المتصدرون لخدمتهم .. وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشىء من العلوم الرياضية الا بقدر الحاجه الموصلة الى علم الفرائض والمواريث كعلم الحساب ... فقال له وعلم الوقت كذلك من العلوم الشرعية بل هو من شروط صحة العبادة كالعلم بدخول الوقت واستقبال القبلة ... فقال نعم معرفة ذلك من فروض الكفاية اذا قام به البعض سقط عن الباقين وهذه العلوم تحتاج الى لوازم وشروط وآلات وصناعات وامور رقية كرقة الطبيعة (**) ... وأهل الأزهر بخلاف ذلك غالبهم فقراء وأخلاط مجتمعة من القرى والآفاق فيندر فيهم القابلية لذلك فقال وأين البعض فقال موجودون فى بيوتهم يسعى اليهم ثم أخبروه عن الشيخ الوالد (***) ... فقال ألتمس منكم ارساله عندى فطلع اليه ولبى دعوته ... وكان يقول لو لم أغنم من مصر الا اجتماعى بهذا الأستاذ لكفانى ومما اتفق له طالع ربع الدستور وأتقنه وطالع بعده وسيلة الطلاب فى استخراج الأعمال بالحساب وهو مؤلف دقيق للعلامة

(*) يقصد الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر وقتئذ .

(**) يعنى رقة الطبع .

(***) الشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى .

المارديني ٠٠٠٠ وكان المرحوم الشيخ عبد الله الشبراوى كلما تلاقى مع المرحـــوم الوالد يقول له سترك الله كمـا سترتنا عنـد هـذا الباشا) (١) ٠

هكذا كان حال الأزهر فى ذلك العصر ٠٠٠ ولم يخلص من هذا الجمود الا بعض مشايخه الذين أخذوا فى تطوير معارفهم فى بيوتهم ، كالشيخ حسن الجبرتى والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى ٠

فلقد اهتم الشيخ حسن الجبرتى بالعلوم الطبيعية والرياضية نظريا وعمليا الى جانب اهتمامه بالعلوم الشرعية ٠٠ وتعلم اللغة الفارسية والتركية ، أو كما يقول عبد الرحمن الجبرتى عن والده (وحفظ اللسان الفارسى والتركى حتى ان كثيرا من الأعاجم والأتراك يعتقـدون أن أصله من بلادهم لفصـــاحته فى التكلم بلســانهم ولغتهم) (٢) ٠

كما حاول الشيخ حسن الجبرتى الالمام بآداب تلك اللغات ، حيث (اجتمع لديه من كتب الأعاجم مثل الكلستان وديوان حافظ وشاه نامه وتواريخ العجم وكليلة ودمنة وغير ذلك) (٣) ٠

ويبدو أن معـرفة الشيخ حسن الجبرتى بالعلوم الرياضية والفلسفية كان نتيجة اتصاله بأحد علماء الهند الذين نزحوا الى مصر فى تلك الفترة ٠ وهو الشيخ حسام الدين الهندى ٠

ويحدثنا عبد الرحمن الجبرتى عن اللقاء بين والده وبين الشيخ بقوله « وقدم القدوة العلامة والحكيم الفهامة الشيخ حسام الدين الهنـدى وكان متضلعا من العلوم الرياضية والمعـارف الحكميـة والفلسفية فنزل فى مسجد فى مصر القديمة واجتمع عليه بعض

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار جـ ١ ص ١٩٣/١٩٤ ٠
(٢) المرجع نفسه ص ٣٩٦ ٠
(٣) المرجع نفسه ص ٤٠١ ٠

الطلبة مثل الشيخ الوسيمي والشيخ أحمد السمنهوري ، وتلقوا عنه أشياء في الهيئة فبلغ خبره المترجم (*) فذهب اليه للأخذ عنه فاغتبط به الشيخ وأحبه وأقبل بكليته عليه، فلم يزل به حتى نقله الى داره وقام بأوده وطالع عليه هداية الحكمة لأثير الدين الأبهري وما عليها من المواد والشروح قراءة بحث وتحقيق وأشكال التأسيس في الهندسة وتحرير اقليدس والمتوسطات والمبادىء وعلم الارثماطيقي والجغرافيا وعلم المساحة وغير ذلك ، ثم أراد أن يلقنه علم الصنعة الالهية وكان من الواصلين فيها فغالطه (**) عن ذلك وأبت نفسه الاشتغال بسوى العلوم المهذبة للنفس ٠٠٠٠ ولم يزل عنده حتى عزم على الرحلة وسافر الى بلاده) (١) ٠

ولا نملك كثيرا من المعلومات عن حياة الشيخ حسام الدين الهندى ، الذى تتلمذ عليه أجل علماء تلك الفترة ٠ وهما : الشيخ حسن الجبرتي والشيخ أحمد الدمنوري وشيخ الجامع الأزهر فيما بعد ٠ وأحد العلماء الذين كان لهم أعظم الأثر في بعث العلوم الفلسفية والطبيعية والرياضية في ذلك الوقت ٠

ويذكر الدكتور التفتازاني في دراسته عن « ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه » بعض شروح متن « الحكم العطائية منها (شرح أحمد بن حسام الدين الهندى المسمى «النهج الثمين» (٢) ٠٠ (شرح على بن حسام الدين الهندى) (٣) ٠

(★) الشيخ حسن الجبرتي والد المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي ٠

(★★) كذا الأصل ٠

(١) المرجع نفسه ٠ ص ٣٧ ٠

(١) المرجع نفسه ٠ ص ٣٩٧ ٠

(٢ ، ٣) د٠ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، مطبعة دار الكتاب العربى القاهرة ط ١ ١٩٥٨ ٠ ص ٧٥ ، ٧٧ ٠

كما أخـــذ الشيخ حسن الجبرتي عن بعض علماء عصره ، كالشيخ عيد النمرسى (علم الجبر والمقابلة والكســورات والأعداد الصم والمساحة والحساب) (١) ·

وفى أواخر حياته العلمية ، راح يتعمق فى العلوم الرياضية والفلكية سواء من الناحية النظرية أو العلمية (فقرأ على الشيخ محمد النجاحى دقائق الحقائق للسبط المارديني··ونتيجة اللادقى(*) ومنحرفات السبط ··· وعند ذلك انفتح له الباب وانكشف عنه الحجاب وعرف الارتفاع والتقاسيم والأرباع والميل الثانى والأول ، وحقق أشكال الوسايط فى المنحرفات ، وانتهت اليه الرياسة فى الصناعة) (٢) ·

واقتنى الشيخ حسن الجبرتي الكثير من الأدوات الهندسية والفلكية ·· الى أن اجتمع لديه المثير من (الآلات الفلكية من الكرات النحاس وكذلك غيرها من الآلات الارتفاعية والميالات وخلق الأرصاد والاسطرلابات والأرباع والعدد الهندسية وأدوات غالب الصنائع مثل النجارين والخراطين والحدادين والسمكرية والمجلدين والنقاشين·· ويجتمــع به كل متقن وعارف فى صناعته مثــل حسن أفنــدى الساعاتي والشيخ محمد الزيداني وكان فريدا فى صناعة التراكيب والتقاطير واستخراج المياه ··· وحضر اليه طلاب من الافرنج وقرأوا عليه علم الهندسة ··· وأهدوا اليه من صنائعهم وآلاتهم أشياء نفيسة وذهبوا الى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم من ذلك الوقت وأخرجوه من القوة الى الفعل واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه) (٣) ·

---

(١) الجبرتي : عجائب الانسان ج ١ ص ٣٩٤ ·

(★) كذا بالأصل · وهو تحريف لاسم الشيخ اللدائقى · ونتيجته هى حساب لعرض مصر · راجع الطهطاوى فى مناهج الألباب ·

(٢) المرجع نفسه ص ٣٩٦ ·

(٣) المرجع نفسه ص ٤٠٢ ·

ومن معاصرى الشيخ حسن الجبرتى الشيخ أحمد عبد المنعم ابن يوسف بن صيام الدمنهورى ، الذى ولى فيما بعد مشيخة الجامع الأزهر والذى تتلمذ على الشيخ حسام الدين الهندى شأنه فى ذلك شأن الشيخ حسن الجبرتى . وأخذ عنه العلوم الرياضية والفلكية والفلسفية . وكان آخر المتقدمين بالنسبة لجيل المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى .

ويتحدث المؤرخ عبد الرحمن الجبرتى عن العلاقة بين والده والشيخ الدمنهورى بقوله (اجتمع الفقير على المترجم قبل وفاته بسنتين ولما عرفنى تذكر الوالد وبكى وعصر عينيه وصار يضرب بيده على الأخرى ويقول ذهب اخواننا ورفقاؤنا ثم جعل يخاطبنى بقوله يا ابن أخى ادع لى ، وكان منقطعا بالمنزل وأجازنى بمروياته ومسموعاته وأعطانى برنامج شيوخه ونقلته ... وكان آخر من أدركنا من المتقدمين) (١) .

ويورد الطهطاوى برنامج شيوخ الشيخ الدمنهورى ، بعد أن يشير الى اهمال « محمد على » فى تدريس تلك العلوم المصرية بالجامع الأزهر : (ان من اطلع على سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهورى ... رأى أنه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير ، وأنه له فيها المؤلفات الجمة ، فانه يقول فيه بعد سرد ما تلقاه من العلوم الشرعية وآلاتها معقولا ومنقولا : أخذت عن أستاذنا الشيخ المعمر الشيخ على الزعترى خاتمة العارفين بعلم الحساب واستخراج المجهولات ... ومنظومة الياسمين فى الجبر والمقابلة ودقائق الحقائق فى حساب الدرج والدقائق لسبط المارديني فى علم حساب الأزياج ... ونتيجة الشيخ اللدائقى المحسوبة لعرض مصر ، والمنحرفات للسبط المارديني فى علم وضع المزاول .... وأخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم بدار الشفاء

---

(١) الجبرتى عجائب الآثار . جـ ٢ ، ص ٢٨ .

بالقراءة عليه كتاب الموجز واللمحة العفيفية فى أسباب الأمراض وعلاماتها بشرح الاقساطى وبعضا من قانون ابن سينا وبعضا من كامل الصناعه ، وبعضا من منظومة ابن سينا الكبرى والجميع فى الطب ۰۰۰۰ وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومى أشكال التأسيس فى الهندسة وبعضا عن الجغمينى فى علم الهيئة ۰۰۰ وقرأت على شيخنا الشيخ عبد الجواد المرحومى جملة كتب ، منها رسالة فى علم الارثماطيقى للشيخ سلطان المزاحى ، وأخذت عن شيخنا الشيخ حسام الدين الهندى شرح الهداية فى علم الحكمة۰۰۰ ولما ذكر ما تلقاه من هذه العلوم أعقبه بما طالعه بنفسه بدون الأخذ من شيخ فقال : طالعت كتاب احياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد فى علم الارثماطيقى فى نحو كراسين ، وكتاب عين الحياة فى علم استنباط المياه فى نحو كراسين ، والرسالة فى الكلام اليسير فى علاج البواسير فى نحو كراسين ، ورسالة التصريح بخلاصة القول الصريح فى علم التشريح فى نحو كراسين ۰۰۰ فانظر الى هذا الامام الذى كان شيخ مشايخ الجامع الأزهر ، وكان له فى العلوم الطبية والرياضية وعلم الهيئة الحظ الأوفر ، مما تلقاه عن أشياخه الأعلام فضلا عن كون أشياخه كانوا أزهرية ، ولم يمنعهم الوقوف على حقائق هذه العلوم النافعة فى الوطنية) (۱) ۰

وما يذكره الطهطاوى عن مطالعات الشيخ الدمنهورى الخاصة، يرى الجبرتى أنها مؤلفات الدمنهورى حيث يقول : (وأما مؤلفاته فمنها حلية اللب المصون بشرح الجوهر المكنون ۰۰۰ واحياء الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد ۰۰۰ وعين الحياة فى استنباط المياه ۰۰۰ والقول الصريح فى علم التشريح ۰۰۰ وتحفة الملوك فى علم التوحيد والسلوك منظومة فى مائة بيت ۰۰ والقول الأقرب فى علاج لسع

(۱) رفاعة رافع الطهطاوى : مناهج الألباب المصرية فى مناهج الآداب المصرية ط ۲ مطبعة شركة الرغائب بمصر ۱۹۱۲ ۰ ص ۳۷٤ ، ۳۷٥ ۰

العقرب ... ومنهج السلوك الى نصيحة الملوك والمنح الوفية فى شرح الرياضى الخليفية فى علم الكلام والكلام السديد فى تحرير علم التوحيد ... وغير ذلك وغالبها رسائل صغيرة الحجم منثورة ومنظومة اطلعت على غالبها) (١) .

ويمكننا أن نستنتج من تلك الوثائق التاريخية البالغة الأهمية التى يقدمها لنا الجبرتى والطهطاوى ، ان الحركة الفعلية المصرية كانت تسير قدما نحو الاحاطة بالمعارف العلمية بصورة موسوعية .

ولكن ذلك كان بالفعل خارج نطاق المناهج الأزهرية الرسمية. فهؤلاء العلماء كانوا فى بيوتهم يسعى طلاب المعرفة اليهم . حيث اتخذوا من منازلهم أمكنة للدرس والبحث فى العلوم التى كانت قد أهملت من جانب الأغلبية الساحقة من علماء عصرهم .

بالاضافة الى ذلك فان ثقافة الجبرتى والدمنهورى لم تخلص بصورة نهائية من أثر المباحث الكلامية والصوفية .

فالشيخ حسن الجبرتى ظل (يملى الدروس بالمنزل ويكتب على الفتاوى ويراجع المسائل الشرعية والقضايا الحكمية مع الديانة والتحرى والمراجعة والاستنباط) (٢) .

وهو يدرس على الشيخ حسام الدين الهندى العلوم الرياضية والفلكية كما يدرس عليه بعض الكتب فى الفلسفة والتوحيد .

واذا رجعنا الى فهرست مكتبة السيد عمر مكرم ، نجده يتضمن بعض مؤلفات الشيخ حسن الجبرتى فى العلوم الشرعية وبعض ما يشير الى أثر الجبرتى فى العلوم الرياضية .

ففى فهرست مكتبة السيد عمر مكرم الخاص بقسم الفقه الحنفى (الأقوال المصرية عن أحوال الأشربة تأليف الشيخ حسن

---

(١) الجبرتى . عجائب الآثار . جـ ٢ . ص ٢٨ .
(٢) المرجع نفسه جـ ١ . ص ٤٠٩ .

ابن ابراهيم بن حسن بن على الزيلعى الجبرتى الحنفى المتوفى سنة ١١٨٨ هـ) (١) .

ويتضمن هـذا الفهرست فى القسـم الخاص بعلم الميقـات (ارشاد السائل الى أصول المسائل وهو شرح لشهاب الدين أحمد ابن المجدى الشافعى المتوفى سنة ٨٥٠ هـ على الدر المنثور فى العمل بربع الدسـتور للماردينى ... وعـلى الورقة الأولى خط العـلامة الجبرتى) (٢) .

ويتضح لنا من مؤلفات الشيخ الدمنهورى ، عمق اهتمامه بعلم التوحيد والكلام بالاضـافة الى شغفه الشـديد بالعلوم الرياضية والطبيـة .

فلم تقتصر قراءة الشيخ الدمنهورى على كتب ابن سينا الطبية كالقانون والمنظومة الكبرى كما سبق أن أشار فى برنامج شيوخه. بل نراه يضع بعض الأمثلة لعلماء عصره كنوع من الاختبار للذين (يزعمون أنهم علماء) (٣) .

وندرك من هذه الأسئلة سعة اطلاع الشيخ الدمنهورى ومعرفته بدقائق كلام الفلاسفة والمتكلمين .. فهو يطرح أسئلة (فى قول ابن سـينا ذات الله نفس الوجود المطلق ما معناه ... وفى قول أبى منصور الماتريدى معرفة الله واجبة بالعقل مع أن المجهول من

---

(١) قسم الفهارس العربية بدار الكتب المصرية : فهرس مكتبة مكرم . مطبعة دار الكتب المصرية . ١٩٣٣ . ص ١٠٤ .

(٢) قسم الفهـارس العربية بدار الكتب العربية : فهرس مكتبـة مكرم . ص ١٤٢ .

(٣) الجبرتى : عجائب الآثار . جـ ١ ص ٣٧١ .

كل وجه يستحيل طلبه ٠٠) (١) وسؤال آخر فى (ابطال الجزء الذى لا يتجزأ) (٢) ٠

ويبدو أن ابن سينا فيما ذهب اليه بقوله : « ان ذات الله نفس الوجود المطلق » قد فتح الباب على مصراعيه أمام التيارات العديدة للفلسفة الصوفية فى الاسلام وذلك منذ السهروردى الذى فند نظرية الجزء الذى لا يتجزأ ، بل فند النظرية الأرسطية فى المنطق والمعرفة بصفة عامة ٠

ونستطيع أن نلمس أثر الحكمة الاشراقية أو المشرقية لابن سينا فى السهروردى وفى الفلسفة الصوفية الاسلامية عند كل من ابن عربى) (ت ٦٣٨) وابن الفارض (ت ٦٣٢) ٠

فان جماع (مذهب ابن سينا كان مقدمة طيبة ولا شك للحكمة الاشراقية لدى السهروردى ٠٠٠ فان محاولة التحرر من السيطرة الأرسطية كان الطريق المشترك لابن سينا والسهروردى ، كما أن الشفاء والاشارات والتنبيهات لابن سينا كانت مجالا خصبا ومدخلا طيبا للمدرسة الاشراقية) (٣) ٠

وان قول ابن سينا « ان ذات الله نفس الوجود المطلق » هو القول الذى ردده السهروردى وابن عربى فيما بعد ٠ الأول فيما أطلق عليه « النور الالهى » والثانى فيما أطلق عليه « وحدة الوجود » ٠ وان كانت صيغة ابن سينا السابقة يعبر عنها فى ألفاظ جديدة مثل « (ان الوجود حقيقة واحدة هى عين الحق ») (٤) ٠

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٧١ ٠
(٢) المرجع نفسه ص ٣٧١ ٠
(٣) د٠ عبد القادر محمود / الفلسفة الصوفية فى الاسلام ٠ مطبعة المعرفة القاهرة ١٩٦٧ ٠ ص ٤٩٩ ٠
(٤) المرجع نفسه ص ٤٨٢ ٠

وسوف نصـادف فى أثناء بحثنا عن الطـابع الثقافى لهذا العصر ، تأثر أغلب العلماء بالفلسفة الصـوفية الاسلامية ، حتى أولئك الذين اتجهوا ناحيـة العـلوم الرياضية والطبيـة كالشيخ الدمنهورى ٠

والجديد بالملاحظة هنا أن جميع شراح التائية الكبرى لابن الفارض الصوفى المصرى وكذلك شراح الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندرى ٠٠ قد تأثـروا بأفكار ابن عـربى فى القول بوحـدة الوجـود ٠

وهؤلاء الشراح جميعـا قد عاشوا فى عصر الشيخ حسن الجبرتى والشيخ أحمد الدمنهورى ٠ وقد لاحظ المستشرق الانجليزى ى ٠ أ ٠ نيكلسون هذا التأثر حيث نراه يقول (وقد تأثر بعض (*) شراح التائية الكبرى من المسلمين بأسلوب ابن عربى وأفكاره ، فاعتبروها معبرة عن مذهب وحدة الوجود الذى هو مذهبهم ومذهب ابن عـربى) (١) ٠

لقد سبق أن أشرنا آنفـا الى اتجـاه بعض علماء هذا العصر كالشيخ حسن الجبرتى والشيخ أحمـد الدمنهورى نحـو المعرفة العلمية : الرياضية والفلكية والطبية ٠٠٠ ولقد لمسنا أن نزعتهما تلك لم تخلص من أثر الفلسفة الصوفية ٠

وحتى تكتمل أمامنا صورة الحياة الروحيـة والثقافية لتلك المرحلة التاريخية ٠ يجب الاشارة الى الجانب الدينى والصوفى فى

---

(١) نيكولسون (ى ٠ أ) : فى التصوف الاسلامى وتاريخه ترجمة د٠ أبو العلا عفيفى مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٤٧ ٠ ص ١٢٥ ٠

(٢) (يشير الى شروح عبد الرازق القلبشـانى ودواد القيصرى وعبد الغنى النابلسى وكلهم شرح التائية لابن الفارض وفصـوص الحكم لابن عربى) هامش للمترجم ص ١٢٥ ٠

الحيـاة الروحيـة للمرحلة السـابقة على مجيء الحملة الفرنسية الى مصر ·

وقد ألمحنا في السطور السابقة الى بعض جوانب تلك الصورة من الحياة الروحية للمجتمع المصرى وقتئذ · غير أننا فى حاجة الى المزيد من الوضوح ·

يحـدثنا الجبرتى عن مؤلفـات الشيخ عبد الغنى النابلسى فيقول : (ومن مؤلفاته المقصود فى وحدة الوجود وفرغ منه فى سنة احدى وتسعين وألف وتحفة المسـألة بشرح التحفة المرسلة والأصل للشيخ محمد فضل الله الهندى والفتح الربانى والفيض الرحمانى ··) (١) ·

يضاف الى ذلك شرحه للتائية الكبرى لابن الفارض ، وشرحه المخطوط لديوان ابن الفارض (*) وشرحه المطبوع « لفصوص الحكم » لمحى الدين بن عربى تحت عنوان « شرح جواهر النصوص فى كل كلمات الفصوص » (**) ·

وفى كتاب فصوص الحكم لابن عربى معالجة شاملة لفلسفته فى وحدة الوجود وهى النظرية التى خصص لها الشيخ عبد الغنى النابلسى مؤلفه الذى يشـير اليه الجبرتى بعنوان « المقصـود فى وحدة الوجود » ·

واذا تأملنا فهرس مكتبة السيد عمر مكرم نجده يحتوى على الكثير من المؤلفات فى التصوف وعلم التوحيد ·· وتحظى مكتبته

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ج ١ · ص ١٠٩ ·

(★) تحت عنوان (كشف السر الغامض من شرح ديوان ابن القارض) انظر الدليل البيليوجرافى مطبعة دار الشعب ٩٩٦٥ · ص ٤٢ ·

(★★) طبع بمطبعة الأمانة فى القاهرة سنة ١٣٠٤ هـ ·

بمؤلفات عديدة لابن عطا الله السكندرى . وبعض شروح مؤلفات محى الدين بن عربى .

من ذلك (لطائف المنن ، فى مناقب الشيخ أبى العباس المرسى وشـيخه أبى الحسن تاليف تاج الدين أبى الفضل المشهور بأن عطاء الله السكندرى المتوفى بالمدرسة المنصورية سنة ٧٠٩ هـ) (١). وكذلك (التنوير فى اسقاط التدبير لابن عطاء الله السكندرى) (٢) ونجد لابن عربى (كشف الكائنات فى قول محى الدين « كنا حروفا عاليات » وهو شرح للشيخ علوان بن على بن عطية الحموى الشافعى المتوفى سنة ٩٣٦ هـ على منظومة فى التصوف لسيدى محى الدين أولها كنا حروفا عاليات ... نزلنا فى سطور سافلات (٣) .

وذلك بالاضافة الى العديد من كتب التراجم الخاصة بالصوفية منها (الكواكب الدرية فى تراجم السادة الصوفية ـ وهى المعروفة بطبقات المناوى الكبرى تاليف الشيخ محمـــد الحدادى القاهرى الشـــافعى المعروف بالمنـــاوى المتوفى ســـنة ١٠٣١ هـ) (٤) . وبهجة الأسرار فى مناقب الســـادة الأخيـــار لابن جهضم الهمدانى (ت ٧١٣ هـ) ، والطبقات الكبرى للشعرانى (ت ٩٧٣ هـ) ، وثمة شروح عديدة لمتن « الحكم » لابن عطاء الله السكندرى قام بها بعض علماء هذا العصر . ويذكر الجبرتى منهم الشيخ على بن حجازى البيومى الذى ألف (كتبا عديدة منها : شرح الحكم لابن عطاء الله السكندرى وشرح الانسان الكامل للجيلى (*)) (٥) .

(١) فهرس مكتبة مكرم . ص ٨١ .
(٢) المرجع نفسه ص ٨٥ .
(٣) المرجع نفسه ص ٨١ .
(٤) المرجع نفسه ص ٨١ .
(٥) الجبرتى : عجائب الآثار . جـ ١ ص ٣٣٩ .
(*) عبد الكريم بن ابراهيم الجيلى ت (١٤١٧ م) وفلسفته الصـــوفية امتداد متطور فى مدرسة ابن عربى) انظر د. عبد القادر محمود الفلســـفة الصوفية ص ٥٩٣ .

وللشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الجامع الأزهر ، ورئيس الديوان أثناء الحملة الفرنسية على مصر • (شرح الحكم) (١) العطائية يعرف باسم (المنح القدسية على الحكم العطائية) (٢) وقد طبع طبعات كثيرة بهامش شرح ابن عياد الرندى (ت ١٣٩٢م) على متن الحكم العطائية •

ونعثر للشيخ الشرقاوى على حاشية لأم البراهين فى علم التوحيد للشيخ محمد التلمسانى المشهور بالسنوسى (ت ٨٩٥هـ) • وجاء ذكرها ضمن فهرس مكتبة السيد عمر مكرم (حاشية الشرقاوى وهو الشيخ عبد الله بن حجازى الشرقاوى المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ على شرح الشيخ محمد بن منصور الهدهدى على الصغرى الموسومة بأم البراهين للسنوسى) (٣) •

ومن الجدير بالذكر هنا تأويل الشيخ الشرقاوى لمذهب ابن عطاء الله السكندرى فى « الأحدية » وتفسير الوجود •

فعلى الرغم من أن تصوف ابن عطاء الله السكندرى هو تصوف سنى •• الا اننا نجد الشيخ الشرقاوى يقوم بتأويل لمذهبه بحيث يربط بينه وبين مذهب وحدة الوجود عند محيى الدين بن عربى •

فلقد لخص ابن عطاء الله مذهبه فى الأحدية فى الوجود بقوله (الأكوان ثابتة باثباته وممحوة بأحدية ذاته) (٤) •

وقد فسر شراحه كلمة الأحدية تفسيرات مختلفة • (على ان شارحا آخر فسر الأحدية العطائية على انها مذهب فى وحدة الوجود

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار جـ ٤ • ص ١٧١ •
(٢) د• أبو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله • ص ١٧٧ •
(٣) فهرس مكتبة مكرم • ص ١٢٨ •
(٤) د• أبو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله • ص ٢٦٠ •

(Pantheism) وفسر اصطلاح الأحدية عند ابن عطاء الله بمعناه عند مدرسة ابن عربى ، وهذا الشارح هو الشيخ عبد الله الشرقاوى) (١) ٠

وهكذا نرى ان التصوف السلفي أو السني ، قد خضع لتأويلات فلسفية ، فى مجرى التطور العام للحياة الروحية لذلك العصر ٠ وصارت تلك التأويلات الفلسفية للتصوف السلفى « بدعة خطرة» ، شأنها فى ذلك شأن الاهتمام بالعلوم الرياضية والفلكية ٠

ونرى الجبرتي يدافع عن الشيخ على بن عبد الشكور فى اتهام الناس له بسبب تأويلاته الصوفية ، التى كانت تذهب الى القول « بالاتحاد » و « الحلول » ٠٠ الخ بقوله : (والناس فى المترجم مختلفون فمنهم من يصفه بالبراعة والكمال وأولئك الذين رأوا كلامه فبهرهم نظامه ومنهم من يرميه بالحلول والاتحاد وهو ان شاء الله تعالى مبرأ مما نسب اليه) (٢) ٠

وبالاضافة الى ذلك ، فان ثقافة الجيل التالى على جيل الشيخ حسن الجبرتي والشيخ الدمنهورى ٠ قد صارت فى تيار الاهتمام بالمعارف العلمية ٠ محاولة اصلاح وعيها الصوفى عن طريق الالمام بالعلوم الرياضية والطبيعية والعلوم الجغرافية والتاريخية ٠

نلمس ذلك فى ثقافة الشيخ حسن العطار والشيخ أحمد الخشاب والشيخ عبد الرحمن الجبرتي ٠

ويجب علينا قبل التعرض لثقافة هؤلاء الرواد الثلاثة ٠٠ ان نلتمس نقطة الانعطاف فى ثقافة هذا الجيل ٠ والتى يمثلها هنا الشيخ أبو الفيض السيد محمد مرتضى الحسينى الزبيدى ٠

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٠ ، ٢٦١ ٠

(٢) الجبرتي عجائب الآثار ٠ جـ ٢ ص ٢٥٢ ٠

ويطلق الجبرتى على الزبيدى فى كل مناسبة يذكر فيها اسم « شيخنا » ٠

ولد الزبيدى سنة ١١٤٥ هـ ٠ وأصله من واسط بالعراق ومولده بالهند ، ومنشؤه فى زبيد اليمن وصل الى الحجاز وأقام بمصر ٠ وتوفى فى عام ١٢٠٥ هـ ٠

ويصف الجبرتى اضافة الزبيدى بالنسبة لعلماء عصره ، المتمثلة فى حرصه (على جمع الفنون التى أغفلها المتأخرون كعلم الأنساب والأسانيد وتخاريج الأحاديث واتصال طرائق المحدثين والمتأخرين بالمتقدمين وألف فى ذلك كتب ورسائل ومنظومات وأراجيزجمة ٠٠ ويعرف اللغة التركية والفارسية) (١) ٠

كما كان يقوم بـ (قراءة مقامات الحريرى) (٢) ويفهم معانيها اللغوية لطلاب عصره ٠

وشرح الزبيدى لقاموس الفيروز أبادى المسمى (تاج العروس فى شرح جواهر القاموس) شاهد على سعة اطلاعه فى علوم اللغة والأدب والتاريخ والطبقات والأنساب والسير والجغرافيا ٠ كما يشهد على عمق معرفته بالغريب والمولد والأعجمى والعامى من الألفاظ ٠ وقد ساعده على ذلك معرفته باللغات التركية والهندية والفارسية ٠

ويبدو أن الزبيدى بحرصه على اتصال طرائق المحدثين والمتأخرين والمتقدمين ، وباهتمامه بجمع الفنون التى أغفلها المتأخرون كلم الأنساب والأسانيد كان على درجة عالية من الحس التاريخى ٠ وهو ما يتضح جليا على صفحات عمله الخالد وهو شرح القاموس ٠

---

(١) المرجع نفسه ص ٢١١ ٠
(٢) المرجع نفسه ص ٢١٣ ٠

حيث نراه يعنى عناية فائقة بذكر الاعلام والأماكن والبلدان مستغلا فى ذلك الكثير من كتب التاريخ والسير والصفات .

ويمكننا أن ندرك رواسب هذا الحس التاريخى عند تلاميذه من الجيل التالى وخاصة عند مؤرخنا الشيخ عبد الرحمن الجبرتى بيد ان الشيخ الزبيدى قد اندفع فيما بعد فى دراسات صوفية عميقة . حيث نراه يؤلف (قلائد المنن فى تحقيق كلام الشاذلى أبى الحسن والمنح العلية فى الطريقة النقشبندية .. وشرح على حزب البر للشاذلى وتكمله على شرح حزب البكرى للفاكهى ورسالة فى تحقيق قول أبى الحسن الشاذلى وليس من الكرم الى آخره ..) (١) .

ويبدو أن مرحلة التصوف كانت مرحلة متأخرة من حياة الزبيدى ختمها بتأليف شرح « احياء علوم الدين للغزالى » وهو المسمى « اتحاف السادة المتقين فى شرح احياء علوم الدين » .

ويحدثنا الجبرتى عن هذا الانعطاف الروحى فى حياة شيخة الزبيدى بقوله « واتفق ان مولاى محمد سلطان المغرب رحمة الله وصله بصلات قبل الجماعه الأخير وتزهده وهو يقبلها بالحمد والثناء فأرسل له سنة احدى ومائتين صلة لها قدر فردها وتورع عن قبولها .. وعلم السلطان ذلك من جوابه فأرسل اليه مكتوبا قرأته وكان عندى ثم ضاع مضمونه العتاب والتوبيخ فى رد الصلة ويلومه أيضا على شرحه كتا بالاحياء ويقول له كان ينبغى أن تشغل وقتك بشىء نافع غير ذلك ويذكر وجه لومه له فى ذلك وما قاله العلماء وكلاما مفحما مختصرا مفيدا) (٢) .

واذا كان عبد الرحمن الجبرتى (١٧٥٤ ـ ١٨٢٢) قد اكتسب

(١) الجبرتى : عجائب الآثار جـ ٢ ص ٢١٦ ، ٢١٧ .
(٢) المرجع نفسه . ص ٢١٦ .

الحس التاريخى من شيخه الزبيدى قبل انعطافه الصوفى فى مرحلته العلمية الأخيرة . فقد ورث الجبرتى عن والده الاهتمام بالمعرفة العلمية .

ولقد كان نمو الوعى التاريخى والتمسك بالمعرفة العلمية ، أخص مميزات الأصدقاء الثلاثة : عبد الرحمن الجبرتى واسماعيل الخشاب وحسن العطار .

ويصف الجبرتى صداقته لاسماعيل الخشاب (ت ١٢٣٠ هـ) كاتب « الديوان فى أثناء الحملة الفرنسية على مصر بقوله » أخونا ومحبنا فى الله تعالى السيد اسماعيل بن سعد الشهير بالخشاب كان أبوه نجارا وولد له المترجم فتولع بحفظ القرآن ثم بطلب العلم وتمسك بمطالعة الكتب الأدبية والتصوف والتاريخ .. وبعد أن رجع صاحبنا العلامة الشيخ حسن العطار (*) من سياحته مازج المذكور (**) وخالطه ورافقه ولازمه فكانا كثيرا ما يبيتان معا .. وكثيرا ما كانا يتنادمان بدارى لما بينى وبينهما من الصحبة الأكيدة والمودة العتيدة فكانا يرتاحان عندى ويطرحان التكلف التى هى على النفس شديدة ويتمثلان بقول من قال :

فى انقباض وحشمة فاذا	رأيت أهل الوفاء والكرم
أرسلت نفسى على سجيتها	وقلت ما قلت غير محتشم

ثم يتجاذبان أطراف الكلام فيجولان فى كل فن من الفنون الأدبية والتواريخ والمحاضرا ت.. واستمرت صحبتهما حتى توفى المترجم (**) وبقى بعده الشيخ حسن فريدا عمن يشاكله وترك نظم الشعر واشتغل بما هو خير من ذلك وأبقى ثوابا فيما هنالك

(★) (١٧٧٦ – ١٨٣٥) .
(★★) يقصد اسماعيل الخشاب .

من تقرير العلوم وتحقيقها والتاليفات المتنوعة فى الفنون المختلفة وهو الآن على ما هو عليه من السعى فى خدمة العلم واقراء الكتب الصعبة) (١) ٠

وتلك صورة نادرة للحياة العلمية والأخلاقية لهؤلاء الرواد الثلاثة تعكس لنـــا مدى تقدم الوعى التاريخى ، ومدى الاخــلاص للصداقة بين العلماء ٠ وهو اخلاص نادر وسط تراكم هائل من صور النفاق والمهادنة فى هذا العصر الذى يرجع ـ كما يقول الجبرتى ـ الى تفاقم الخطوب وتزايد الكروب وكثرة التلون بين العلماء والناس لميلهم الى أرباب الدنيا من بكوات وأمراء ٠

ويشير الطهطاوى الى مشـــاركة الشيخ حسن العطار للشيخ الدمنهورى فى الاحاطة بالعلوم والمعـــارف التى أخـذ الدمنهورى بالاشتغال بها فيقول (وكان للمرحوم العلامة الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر مشاركة فى كثير من هـــذه العلوم حتى فى العلــوم الجغرافية ، فقد وجدت بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لاسماعيل أبى الفداء سلطان حماة المشهور أيضـــا بالملك المؤيد ، [illegible]شيخ المذكور أيضا وجدتها بأكثر التواريخ وعلى طبقات الأطباء و[illegible] ، وكان يطلع دائما على الكتب المعربة من تواريخ وغيرها ، وكان له ولوع شـديد بسـائر المعارف البشرية مع غاية الديانة والصيانة ، وله [illegible] تآليف فى الطب وغيرها) (٢)

لقد تجاوز هؤلاء [illegible]د الثلاثة العقد الرابع من أعمارهم حين دخل بونابرت القاهرة فى ٢١ يوليو ١٧٩٨ م ٠ وبذلك تكون حياتهم الثقافية قد تشكلت تحت تأثير العلوم والمعارف التى تم اكتسابها من خلال تطويرهم للتراث العلمى العربى ٠

---

(١) المرجع نفسه ٠ ص ٢٥٥ ٠
(٢) الطهطاوى : مناهج الألباب ٠ ص ٣٧٦ ٠

فمن الوهم التاريخى اذن التصور بأنهم لم يكتسبوا خصالهم الفكرية الا بعد اتصالهم بعلماء الحملة الفرنسية ·

بل كان لنضجهم العلمى السابق على مجىء الحملة الفرنسية ، أثره فى تجاوبهم مع مظاهر العلم والحضارة الفرنسية ·

وما أن نصل الى أحد تلامذة الشيخ حسن العطار ، رفاعة رافع الطهطاوى ـ (١٨٠١ ـ ١٨٧٣) حتى نلمس بوضوح بداية الاتصال المباشر بالعقلية الأوربيـة ولاسيما أفكار عصر التنوير الفرنسى ، خاصة فى السنوات التى قضاها فى فرنسا (١٨٢٦ ـ ١٨٣١) ·

ففى فرنسـا اتسعت دائرة قراءات الطهطاوى فى الفلسفة اليونانية والميثولوجيـا والتاريخ القديم ، وخاصة التاريخ المصرى القديم ، والجغرافيا والمنطق والرياضيات · مع تركيز خاص على دراسة الفكر الفرنسى فى القرن الثامن عشر لدى كل من فولتير وروسو وديدرو ومونتسكيو ·

لقد كان الطهطاوى من جيل المثقفين المصريين الذين أحسوا (بأن الثقافة الأزهرية وحدهـا لم تعد تتلاءم مع ظروف عصرهم وأحسوا بضرورة دعوة مواطنيهم الى الاستفادة من علوم الغرب) (١)

وكان موقف الطهطاوى بالنسبة للحضارة الغربية بصفة عامة ، هو الاحساس (بمظاهر التفوق فى نظمها السياسية وبعض تقاليدها وعاداتها) (٢) ·

لقد حاول الطهطاوى تكييف أفكاره ومعارفه الأزهرية التقليدية

---

(١) د· عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية الحديثة فى مصر · دار المعارف · القاهرة ١٩٦٣ · ص ٢٠ ·

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠ ، ٢١ ·

مع الأفكار والمعارف الغربية · حيث نراه ينظر الى العلوم المصرية على انها علوم اسلامية نقلها الأجانب الى لغاتهم ·

وهو عندما يتأمل نظام الحكم الديمقراطى فى فرنسا نراه يفكر فى نظام الشورى فى الشريعة الاسلامية · كما نجده يكيف مفهوم الوطن « والوطنية » بمفهوم الاخاء فى الدين ، أو الاخوة الاسلامية ·

يقول الطهطاوى حول أهمية العلوم المصرية الأوربية ، بعد أن يشير الى عجز محمد على على تطوير الأزهر (ولو أنه أعلى منار الوطن ورقاه لم يستطع الى الآن أن يعم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور ، ولم يجذب طلابه الى تكميل عقولهم بالعلوم الحكمية التى كبير نفعها فى الوطن ليس ينكر · لاسيما وأن هذه العلوم الحكمية العلمية التى يظهر الآن أنها أجنبية ، وهى علوم اسلامية نقلها الأجانب الى لغاتهم من الكتب العربية ، ولم تزل كتبها الى الآن فى خزائن ملوك الاسلام كالذخيرة · بل لا زال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل أوربا حكماء الأزمنة الأخيرة) (١) ·

وعندما يتحدث الطهطاوى فى « مطلب » تعميم أبناء الوطن فى مكارم الأخلاق بدون تفرقة ولا نظر للاختلاف فى الدين ·· نراه يكيف فكرة الاخوة الاسلامية مع فكرة الاخاء فى الوطن · مع الرجوع الى الأحاديث النبوية للاستشهاد على الاخاء الذى أشار اليه (صلى الله عليه وسلم بقوله المسلم أخو المسلم ··· ولا مانع أن يعمم فى مكارم الأخلاق فجميع ما يجب على المؤمن لأخيه المؤمن منها يجب على أعضاء الوطن فى حقوق بعضهم على بعض لما بينهم من الاخوة الوطنية فضلا عن الاخوة الدينية · فيجب أدبا لمن يجمعهم وطن واحد التعاون على تحسين الوطن وتكميل نظامه فيما يخص

---

(١) الطهطاوى : مناهج الألباب ص ٣٧٤ ·

شرف الوطن واعظامه وغناءه وثروته لأن الغنى انما يتحصل من انتظام العاملات وتحصيل المنافع العمومية وهى تكون بين أهل الوطن على السوية لانتفاعهم جميعا بمزية الأخوة الوطنية فلذلك بين عليه الصلاة والسلام قوله المسلم أخو المسلم بقوله أى لا يدخل عليه ضررا فى نحو نفسه أو دينه أو عرضه أو ماله لأن ذلك قطيعة محرمة تنافى الاخوة) (١) ٠

فالفكر السياسى والاجتماعى الذى يقدمه لنا الطهطاوى وخاصة فى كتابه « مناهج الألباب المصرية » الذى صدر فى عام ١٨٦٩ هو تطوير أو تكيف للنظريات السياسية الاسلامية التقليدية ٠

وهو هنا يمثل لنا جيل دعاة التنوير الذين كانوا (يشتسعرون رياح التغيير من الغرب ويفتحون لهـا صدورهم ، لأنهم لم يرتابو فيما تحمله من جراثيم الاستعمار) (٢) ٠

ورغم ذلك لا يمكن الباحث تجاهل الدور الطليعى العظيم لرفاعة الطهطاوى فى تاريخ الفكر المصرى الحديث ٠

فلقد ظلت أفكار الطهطاوى تراوده فى امكانية تطوير الشريعة الاسلامية نحو نظام للحكم السياسى يكون أقل استبدادا من الحكم المطلق لمحمد على وأسرته ٠

ولقد الهمت أفكاره السياسية عن الحكم النيابى فى فرنسا ، الجيل التالى من المثقفين المصريين ٠ كما ساعدت على تطوير الفكر السياسى الاسلامى ٠ وخاصة فكرة نظام الشـورى فى الشريعـة الاسلامية ٠ وهى الفكرة التى حاول ان يطبقهـا الخديو اسماعيل

---

(١) المرجع نفسه ٠ ص ٩٩ ٠

(٢) د٠ شكرى عياد : ادبنا المعاصر بين التغيير والاستمرار ٠ مجلة المجلة يناير ١٩٦٩ ٠ ص ٥ ٠

بانشاء مجلس شورى النواب « في عام ١٨٦٦ ، الذي عرف في عهد توفيق باسم « مجلس النواب » ... وهو المجلس الذي افتتح في ٢٦ ديسمبر ١٨٨١ .

ولقد كانت تلك المجالس بالفعل مجرد مظاهر شكلية للحكم الاستبدادي في عهد أسرة محمد علي ، ورغم ذلك لا يمكننا تجاهل أثر الفكر السياسي الذي عرضه الطهطاوي لمواطنيه ، وخاصة أفكار الثورات الفرنسية في ١٧٨٩ وعام ١٨٣٠ .

ولقد كانت تلك الأفكار مصدر الهـام سياسي لأحمد عرابي (١٨٣٩ ـ ١٩١١) الفلاح الذي قضى في دراسة العلوم الشرعية بالأزهر مدة أربع سنوات .

وسواء أكانت معرفة عرابي بتاريخ الثورة الفرنسية والحروب النابليونية قد جاءت عن طريق قراءته لما قدمه الطهطاوي عن الثورة الفرنسية ونظم الحكم الغربية ، أو عن طريق الكتب المترجمة التي قام بها بعض طلبة البعثات التي كان يشرف عليها الطهطاوي بنفسه . فلقد كانت لتلك المعرفة أثرها الحاسم في تمسك عرابي . بالمطالبة بالدستور والحكم النيابي وأن يعمل كما يقول في موجز حياته الذي كتبه لجرجي زيدان على (نيل الحرية والعدل والمساواة لأهل بلادي المساكين) (١) .

ويذكر الامام محمد عبده في مذكراته ان تمسك الزعيم أحمد عرابي بالحكم النيابي يرجع الى اطلاعه على الكتب المترجمة (وكان يطالع في الجرايد ، وفي بعض الكتب المترجمة من اللغات الأوربية ، ويسمع من بعض المطلعين على أحوال ممالك أوربا ان مجالس النواب في تلك الممالك هي القائمة بحفظ أصول النظام ، وهي القاضية على

---

(١) جرجي زيدان : بناة النهضة العربية كتاب الهلال ١٩٥٧ . ص ٤٣ .

كل حـاكم بالتزام حـدوده والحاجبة للاسـتبداد فى الأرواح والأموال) (١) ٠

وكانت خبرة الثورات الفرنسية التى عرضها الطهطاوى لأول مرة فى تاريخ الفكر المصرى الحديث ، موضع اهتمام شديد بالنسبة للزعماء الوطنيين فى ذلك الوقت كما ترجم الطهطاوى القانون المدنى الفرنسي وهو قانون نابليون ٠

فما ان قرأ عرابى كتابا مترجما عن تاريخ نابليون حتى عمد الى دراسة عامة للتاريخ الغربى والعربى معا ٠ عاملا فى الوقت ذاته على تطوير فكرة نظام الشورى فى الشريعة الاسلامية على ضوء ما قرأ عنه من نظم الحكم الدستورى فى الغرب ٠

فلما قرأ عرابى (كتابا باللغة العربيـة عن تاريخ نابليون بونابرت ، ولما طالعه شعر بحاجة مصر الى حكومة شورية دستورية ، وتاقت نفسه الى كثير من التواريخ الغربيـة وزاد ميله الى حـكم الشورى) (٢) ٠

وبذلك تكون حركة الاستنارة ، التى ساهم فيهـا الطهطاوى بجهوده الفكرية الخارقة ، قد أدت دورها الطليعى فى الحياة الفكرية المصرية منذ منتصف القرن التاسع عشر ٠

ومن علماء الأزهر الذين تتلمذوا على الشيخ حسن العطار ، الشيخ محمد عياد الطنطاوى (١٨١٠ ـ ١٨٦١) ٠

والذى جاء تأثيره فى الحيـاة الثقافية المصرية بطريق غـير

---

(١) محمد عبده : مذكرات الامام محمد عبده / دار الهـلال : بتحقيق طاهر الطناحى (بدون تاريخ) ٠ ص ١١١ ٠

(٢) عبد الرحمن الرافعى : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزى ط ٣ ، ١٩٤٩ ٠ مطبعة السعادة بمصر ٠ ص ٨١ ٠

مباشر ٠٠ وهو تأثير فعال وأصيل ، وان كانت فترة اختماره قد مكثت أمدا ليس بالقليل ٠

لقد تتلمذ على الشيخ عياد الطنطاوى عدد من الأدباء السوريين الذين ساهموا فيما بعد مع بطرس البستانى فى تطوير الثقافة العربية بالشام ٠٠ كما تتلمذ عليه عدد من المستشرقين الأوربيين الذين لعبوا فيما بعد دورا بارزا فى نقل الأدب العربى ٠ والفكر العربى الى مرحلة جديدة من البحث العلمى ٠

وتؤكد لنا شروح الطنطاوى على بعض المؤلفات اللغوية والمنطقية التى كانت تدرس بالأزهر تلمذته على الشيخ حسن العطار ، فمن مصنفاته فى القاهرة (تقييدات على شرح الأزهرية لمؤلفها الامام خالد ، مع التعرض لحاشيته المشحونة بغرر الفوائد ، لشيخنا خاتمة المحققين والنظار ، مولانا الشيخ حسن العطار) (١) ونجد له أيضا (تعاليق على حاشية المقولات للعطار) (٢) ٠

وتأثرا بالعطار يأخذ الشيخ الطنطاوى فى الاهتمام بالمعارف العلمية حيث نجد له حاشية على (رسالة فى العمل بربع المقنطرات للعلامة سبط الماردينى) (٣) ورسالة فى الحساب باسم (منتهى الآداب فى الجبر والميراث والحساب) (٤) وحواشى كثيرة فى علم التوحيد ٠

ومن تلاميذ الشيخ عياد الطنطاوى (الذين تركوا أثرا فى الآداب العربية والمجتمع ٠٠ السورى الأصل الشيخ يوسف الأسير

(١) كراتشكوفسكى : حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى ترجمة كلثوم عودة ٠ مراجعة عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغنى حسن ومطبوعات المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون ٠ مطبعة الشعب القاهرة ١٩٦٤ ٠ ص ١٢٣ ٠

(٢) المرجع نفسه ص ١٧٠ ٠

(٣) المرجع نفسه ص ١١٨ ٠

(٤) المرجع نفسه ص ٨٥ ٠

(١٨١٥ ـ ١٨٨٦) الذى قضى فى الأزهر سبع سنوات وتتلمذ على الطنطاوى ... والأسير كان فيما بعد مدرسا من رجال القضاء فى اسطنبول ، ومختلف بلدان سورية ، وخصوصا فى بيروت حيث اشترك مع بطرس البستانى فى أعماله الأدبية والاجتماعية ، وكان يوسف الأسير معلما للسياسى الشاب « هوثمان » الذى غدا فيما بعد مستشرقا مشهورا مطلعا على الآداب العربية المصرية) (١)

لقد رفض الطنطاوى الانخراط فى سلك الخدمات التعليمية بمدارس محمد على أو ما كان يطلق عليه « خدم الباشا » مفضلا القيام بالتدريس فى المدرسة الانجليزية كأستاذ للغة العربية . ويشرح لنا سبب ذلك بقوله فى ترجمته الذاتية (وكنت أعلم فى مكتب الانجليز فى مصر .. وأما خدم الباشا فانى دعيت اليها كثيرا . ومع ذلك لم أجد نفسى تميل اليها وذلك لأسباب منها : ـ ان من ذهب اليها لا يقدر ان يكون له درس فى الأزهر) (٢) .

وظل الشيخ الطنطاوى فخورا بالأزهر وبمواد دراسته فيه (وقرأت المقامات الحريرية فى الأزهر ، وشرح الروزنى على المعلقات وما علمت أحدا قبلى قرأهما فيه ، وقرأت البردة ، وبانت سعاد والتحفة فى الحساب) (٣) .

ويصف الطنطاوى فى ترجمته الذاتية ظروف اللقاء بينه وبين بعض المستشرقين فى مصر بقوله (والجأنى الدهر الى الكسب ، فعاشرت بعض الفرنج المقيمين بمصر وأول من عاشرته حضرة الخواجة فرنيل وهو يحب العربية بالطبع فكان يحثنى دائما على الأشتعال ، وهو الآن قنصل جده وبسببه تقويت فى العلوم الأدبية ، لأنى كنت

---

(١) المرجع نفسه ص ٣١ ـ ٣٢ .
(٢) المرجع نفسه ص ١١٣ .
(٣) المرجع نفسه ص ١١٢ .

اقرؤها معه ، وهو كان من أهل التحقيق والتدقيق وله توقفات حسنة ، وبنات أفكار جميلة ٠ وقد كتب رسائل فيما كان يقرأ معى كترجمة الشنفرى ، وأيام العرب ٠ الخ ٠٠ ونوه بذكرى فيها ثم رغبنى فى اللغــة الفرنســـاوية ٠٠ ثم اجتمعت على غــيره بسببه كالخواجة وائل النمساوى ، والخواجة برونير الحكيم بالقصر العينى سابقا ، والخواجة بيرون مدير القصر العينى الآن ، وقد قرأ معى كثيرا من ترجمات الأغانى وانساب العقد (*) ٠٠٠ ثم من جملة من قرأ على من الفرنج الخواجة نقوله موضن (**) المسكوبى ، ثم الخواجة فرين المسكوبى ثم سألانى الذهاب الى بتروبورغ فأجبت ثم بعد انقضاء الزمان اللازم لتوفيه هذا الأمر حضرت الى بتربورغ) (١) ويذكر فرنيل Fresnel (١٧٩٥ ـ ١٨٥٥) صاحب كتاب تاريخ العرب قبل الاسلام ومترجم شعر الشنفرى الى الفرنسية (« انه مدين للطنطاوى ، وأنه الشيخ المصرى الوحيد فى هذا الوقت الذى يدرس لغته بمحبة واهتمام ، ويدرس كتب الآداب العربية القديمة »)(٢) ٠

كما يدين له بالفضل المستشرق الانجليزى ادوارد وليام لين Lane (١٨٠١ ـ ١٨٧٦) صاحب كتاب « المصريون المحـدثون وعاداتهم ») وصاحب المعجم العربى الانجليزى ، ومترجم « ألف ليلة وليلة » الى الانجليزية بمعاونة الشيخ الطنطاوى ٠٠ (وعندما نقل « ألف ليلة وليلة » الى الانجليزية نقلهـا عن نسخة صححها وعلق عليها الشيخ الطنطاوى الذى « يمكن ان نسميه بلا تردد : أول عالم لغوى فى أول مدرسة عربية فى ايامنا ») (٣) ٠

(★) يقصد العقد الفريد لابن عبد ربه ٠
(★★) تحريف لاسم نقولا موخن أحد المهتمين بالدراسات الشرقية ٠
(١) المرجع نفسه ص ١١٤ ٠
(٢) المرجع نفسه ص ٣٦ ٠
(٣) المرجع نفسه ص ٣٧ ـ ٣٨ ٠

ولم ينحصر تلاميذ الطنطاوى فى المستشرقين الفرنسيين والانجليز فحسب حيث انه درس طلبة المان أيضا • فنذكر Weil (١٨٠٨ – ١٨٨٦) الذى اشتهر فيما بعد كمؤرخ للخلافة •• وقد قضى أربع سنوات فى القاهرة ودرس على الشيخ الطنطاوى فى وقت واحد من فرنيل) (١) ••• وكان من بين تلاميذه من المستشرقين الروسيان « موخين » « وفرين » الأول كما يقول الطنطاوى قد (قرأ على يده شيئا من المعلقات وأخبار شعرائها وله دراية بكثير من اللغات كالفرنسية والتركية) (٢) والثانى (يذكره الطنطاوى فى عداد تلاميذه أسوة بموخين) •

وكنتيجة طيبة للمؤثرات المتبادلة بين الطنطاوى وهؤلاء المستشرقين ، أخذ الطنطاوى فى الاهتمام بالفولكلور فظهر له (حال الأعياد والمواسم فى مصر •• كتاب الحكايات ••• التحيات المعتادة فى كلام العامة) (٣) •

كما تعلم العديد من اللغات الأجنبية ، تعلم الفارسية وترجم (الباب الأول من كلستان السعدى) (٤) •

وتعلم اللغة التترية ووضع (القاموس التترى – العربى •• ربما كان تأليفه تحت تأثير تعرفه ببعض التتر من بين أهالى بطرسبرج) (٥) •

وتعلم اللغة الروسية ، وألف بها (قواعد اللغة العربية باللغة

---

(١) المرجع نفسه ص ٣٩ •
(٢) المرجع نفسه ص [illegible] – ٤٢ •
(٣) المرجع نفسه ص [illegible] •
(٤) المرجع نفسه ص [illegible] •
(٥) المرجع نفسه ص [illegible] •

« الروسية » (١) وتعلم اللغة الفرنسية وألف بها (أحسن النخب فى معرفة لسان العرب

Traitede La Lanque arabe vulgaire : Par Leschaikhm Muhammud Ayyadel — Tantauy, Leipsic, 1848.

هذا الكتاب أكسب طنطاوى شهرة علمية عظيمة فى بيئات غرب أوربا ... وقد استقبل فليشر Fleischer رئيس المستعربين الألمان الكتاب حين صدره بتقريظ ... مشيرا الى انه خطوة كبيرة الى الأمام بالنسبة لوقته ، اذ فى ذلك الوقت فقط بدت دراسة اللهجات العامية والاهتمام بها من عالم محترم كأنها حدث أدبى كبير ... ولقد كان الطنطاوى مفردا فى فهم مهمة علم اللهجات بين معاصريه من رجالات النهضة العربية الكبار) (٢) .

ووضع الشيخ الطنطاوى باللغة الفرنسية أيضا ملاحظات على مختارات رحلة ابن جبير « وملاحظات على ترجمة بعض الأشعار العربية » و « قاموس فرنسى فى اللهجة المصرية » (٣) .

ويذكر المستشرق الألمانى (Wallin دراسته معه باللغة الألمانية ... وهكذا الى جانب لغته العربية كان له المام بست لغات أخرى وهذا أفق كان بعيدا عن مواطنيه فى ذلك الوقت) (٤) .

لقد اهتم الطنطاوى بتاريخ الأدب العربى القديم ، وكان تدريسه « للمعلقات » ولمقامات الحريرى « فى الأزهر موضع اعتزاز شديد من ناحية وهو أول من قام بهذا العمل فى تاريخ الأزهر ، ولقد ظل

---

(١) المرجع نفسه ص ٩٨ .
(٢) كراتشكوفسكى : حياة الشيخ محمد عياد . ص ١٠٣ .
(٣) المرجع نفسه ص ١٠٦ .
(٤) المرجع نفسه ص ١٠٢ .

متابعا لعمله الأدبى بصورة طيبة ٠٠ فقام بشرح المبرد للامية العرب للشاعر الجاهلي الشنفرى ٠٠ ونعثر له على تعليمات وشروح لديوان المتنبى وكتاب الايضاح فى شرح سقط الزند للشيخ أبى زكريا يحيى التبريزى وله أيضا (مختصر الأغانى كراسة منقولة من كتاب الأغانى للاصفهانى (ت ٣٥٦ ـ ٩٦٧) ٠٠٠ على الهامش تصحيحات وملاحظات كثيرة مكتوبة بيد الطنطاوى ، وأحيانا نجد بعض كلمات باللغة الفرنسية ، والمخطوط مكتوب فى العهد المصرى ، وربما كتب حينما كان الطنطاوى يدرس لـ Perrom, Fresnel عندما اختمرت فكرة طبع الأغانى) (١) ٠

كما نجد له ملاحظات على مجمع الأمثال « للميدانى (ت ٥١٨ هـ ـ ١١٢٤ م) ٠

ونراه يطالع « ريحانة الألباب » لشهاب الدين الخفاجى المصرى المتوفى سنة ١٠٦٩ م صاحب المؤلفات العديدة عن علم اللغة العربية وما أقحم عليها من الكلام المعرب أو الدخيل أو المولد ، وكلها مباحث كانت موضع عناية الشيخ الطنطاوى ٠

وللشهاب الخفاجى شرح « دره الغواص » للحريرى ٠٠ « وشفاء الغليل فيما فى كلام العرب من الدخليل » ٠

ومن الطريف ان كتاب « ريحانة الألباب » للشها بالخفاجى كما يقول الطنطاوى قد (انتهى مقابلته بقدر الطاقة على يد الفقير عبد الرحمن الجبرتى سحر ليلة الاثنين لعشر خلون من شهر رمضان المعظم سنة ١٢١٢ هـ (٢) ومكتوب بعد هـذه ملاحظة (عن قراءة

---

(١) المرجع نفسه ص ١٣٦ ٠

(٢) المرجع نفسه ص ١٤٥ ٠

المخطوط : حسن ابن محمد العطار وبقلم رصاص : طالعه مطالعة تدبر الفقير محمد عياد الطنطاوى) (١) ٠

لقد كان اهتمام الشيخ الطنطاوى فى بداية حياته الأدبية والعلمية يدور حول حياة العرب قبل الاسلام متلمسا فى شعراء المعلقات وشعر الشنفرى وأمثال الميدانى ، وأغانى الاصبهانى ٠٠ وحياة العرب قبل الاسلام ، هى ميدان جد خطير ، ويرتبط اقتحام هذا الميدان الوعر المسالك ، بجهود المستشرقين الأوربيين ، وقد مهد لهم الطنطاوى طريق دراستهم ٠

ثم كان اهتمام الطنطاوى بعد ذلك بالفولكلور العربى ، وهو أيضا ميدان جد خطير ، لاحتوائه على روح الشعب العربى كنواه ، وسر خفى ، وان يقتحم عالم ازهرى محترم هذا الميدان الذى ظل لفترة طويلة محتقرا من جانب الأدب الرسمى أو الأدب الفصيح ليعد مفخرة جليلة للشيخ عياد الطنطاوى ٠

وانتهى المطاف بالشيخ عياد الى دراسة تاريخ الخلافة في الشرق الاسلامى حيث نجد له محاضرات فى (تاريخ الخلافة حتى عهد فتوح المغول) (٢) ٠

ونراه يهتم بتاريخ البلد الذى وصل اليه بالشمال ، فيترجم عن الروسية (تاريخ الروسيا الصغير لأوسترالوف) (٣) ٠

ثم يضع فى عام ١٨٥٠ أكبر مؤلفاته الأدبية : وصف روسيا تحت عنوان (تحفة الأذكيا بأخبار بلاد روسيا) (٤) يصف فيه على

---

(١) المرجع نفسه ص ١٤٥ ٠
(٢) المرجع نفسه ٠ ص ٦٤ ٠
(٣) كراتشكوفسكى : حياة الشيخ عياد ٠ ص ٩٧ ٠
(٤) المرجع نفسه ص ٩٦ ٠

غرار الطهطاوى فى وصفه لفرنسا فى كتابه تخليص الابريز الى تلخيص « طباع الروس وعاداتهم بعد ان يتناول نشأة روسيا وتاريخ بطرس الأكبر وبطرسبرج » ..

الا أن المرض أقعده فى سنيه الأخيرة ، عن تكميل العديد من مشروعاته الأبية والعلمية ، حيث اخذ الشلل يهدد حياته ، ولكنه مع ذلك ظل متشبثا بامكان القيام بعمله العقلى .. وخط بيده العاجزة مئات الأوراق .

لقد كانت حياته فى تلك الآونة كما يصفها كراتشكوفسكى (حياة أشبه برواية أو بصيغة أخرى : حياة أشبه بمأساة) (١) ولكن حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى بأكملها تبدو لنا الآن حياة أشبه برواية هزلية .. خاصة بالنسبة لنا نحن الذين نجهل كلية العديد من أبحاثه العلمية الرائدة .. وظلت فريدة مؤلفاته الأدبية عن « وصف روسيا » غريبة عن المثقفين العرب . حيث (لم تبلغ فى الشرق الا اسطنبول) (٢) .

ونستطيع ان نفهم لماذا اهتمت تركيا بمؤلفات الطنطاوى ، الأستاذ بجامعة بطرسبوح ، لقد ظلت روسيا تطرق أبواب الأستانة بالمعارك والحروب المستمرة . فما كان على سلاطين الباب العالى الا ان يفحصوا بدقة كل ما يدور فى الحياة الروسية والمجتمع الروسى على أن الحروب الروسية ـ التركية . لم يتوقف تأثيرها عند حدود اسطنبول . بل كانت موضع اهتمام كل الشعوب العربية وقتئذ . وكان من نتائجها بالنسبة لتركيا ، ان تطورت نظمها السياسية . فأعلنت عقب هزيمتها فى حربها مع روسيا فى ١٨٧٦ انشاء مجلس نيابى على الطراز الاوربى .

---

(١) المرجع نفسه . ص ١٠٨ .
(٢) المرجع نفسه ص ٨٤ .

ولقد سرت عدوى الحياة الدستورية والنيابية على أثر ذلك الى المصريين ويعد الأستاذ الامام محمد عبده فى مذكراته عن الثورة العرابية تلك الحرب الروسية التركية فى عام ١٨٧٦ وما نتج عنها ، من الدوافع الأساسية التى كانت وراء العرابيين فى المطالبة بانشاء مجلس نيابى واعلان الدستور ٠

فعلى الرغم من أثر العلاقات الروسية ـ التركية فى الحياة المصرية ٠٠ لم يصل كتاب الطنطاوى عن وصف روسيا الى مصر ولم يبلغ فى الشرق العربى الا اسطنبول ٠

ولقد فطن أحمد عبيد أحد تلاميذ رفاعة الطهطاوى بمدرسة الألسن الى أهمية تاريخ روسيا بالنسبة للقضية الشرقية برمتها ، فترجم ـ وربما كان ذلك بايعاز من الطهطاوى ـ كتاب فولتير عن بطرس الأكبر ٠

لقد كان الطهطاوى والطنطاوى ، من أى زاوية ننظر منهما اليهما ، بمثابة امتداد حى وأصيل ، من أى زاوية ننظر منهما بث فيهما حب المعرفة ايا كان مصدرها وايا كانت مصاعبها ٠

ويقف كل منهما الآن أمامنا كدليل حى على مقدرة الحياة المصرية فى تطوير ذاتها ، نحو عالم أفضل ، خاصة ان أحدهما جاء من قلب ريف الصعيد ، بينما جاء الآخر من صلب ريف الوجه البحرى ٠ ان محاولة تغلبهما على ضيق أفق معاصريهم لمؤثره جليلة ونادرة فى تاريخ الفكر المصرى الحديث ٠

وعند الطهطاوى والطنطاوى ينتهى فصل من هذا التاريخ ، ينتهى فصل حركة الاستنارة بكل ما له وما عليه ، وقبل ان نتبين حركة التجديد والاصلاح الدينى والفكرى عند السيد جمال الدين الافغانى ٠ وتلميذه الشيخ محمد عبده ٠ يجب علينا ان نلقى نظره خاطفه على مظاهر الحياة الأدبية فى تلك الفترة التاريخية ٠

يبدو انه من الصعوبة بمكان ، ان نقرر ان الفترة التاريخية السابقة على مجيء الحملة الفرنسية الى مصر لم تصرف أى مظهر من مظاهر الحياة الأدبية ... أو كما يقرر بعض الدارسين (انه لم يكن هناك مظهر من مظاهر الكتابة يستحق ان يسمى أدبا) (١) .

والحقيقة ان الشعب المصرى لم يعدم التعبير عن مشاعره فى نوع من الأدب غير الرسمى ، وهو الأدب الشعبى .

فالأدب الرســمى أو الأدب الفصيح قد جف معينه فى ذلك الوقت ويرجع ذلك عادة الى انقطاع الشعراء والكتاب عن الاتصال بتراثهم الأدبى الثرى .

ولم يخلص من هذا الانقطاع الثقافى عن التراث العربى غير بعض الأفراد القلائل وقد جاء اتصالهم بهذا التراث وقتئذ لدوافع نوعية خاصة .

ففى فهرس مكتبة السيد عمر مكرم نعثر على بعض الآثار الأدبية الخالدة . كشرح على « سقط الزند » للمعرى وهو (التنوير على سقط الزند وهو شرح لابى يعقوب يوسف بن طاهر النحوى من علماء القرن السادس الهجرى على الديوان المسمى سقط الزند لابى العلاء أحمد بن سليمان المعرى) (٢) .

ونعثر أيضا على (المقالات الجوهرية على المقامات الحريرية وهو شرح للعلامة خير الدين بن تاج الدين المدنى على المقامات الحريرية لابى محمد القاسم بن على الحريرى) (٣) .

---

(١) د. لويس عوض : تاريخ الفكر المصرى الحديث جـ ١ ص ٥٧ .
(٢) فهرست مكتبة مكرم ص ٦٧ .
(٣) المرجع نفسه ص ٦٨ .

ولكن اقتناء السيد عمر مكرم لهذين العملين الأدبين لم يكن فيما يبدو لقيمتهما الأدبية الخالصة · بل لقيمتهما النحوية واللغوية فشارح « سقط الزند » هنا عالم نحوى : ومقامات الحريرى كانت تعتبر الى عهد قريب بمثابة القاموس اللغوى وذلك لاحتوائهـا على العديد من الألفاظ غير المألوفة والغريبة · لذلك اعتمد عليها الزبيدى كمرجع أساسى فى « تاج العروس » ·· وكانت من الكتب التى يقوم بشرحها لأهل عصره · وكان يوصف فى القاهرة كما سبق ان حدثنا الجبرتى ، بأنه شارح لمقامات الحريرى ·

وحتى أولئك الذين اهتموا بفنون الأدب بصفة خاصة ، وهو اهتمام نادر وقتئذ ، كان اتصالهم بالتراث العربى ، يتلون بطابع الظروف الدينية للعصر ·

ويحدثنا الجبرتى عن اهتمام الشاعر الناثر الشيخ عبد الله الادكاوى (ت ١١٨٤ هـ) بدواوين الشعراء القدامى بقوله (الشيخ عبد الله الادكاوى المصرى الشافعى ولد بادكو سنة أربع ومائة وألف ، واشتهر بفن الأدب ·· وقد كتب بخطه الفائق كثيرا من الكتب الكبار ودواوين الشعراء ··· ورأيت مما كتب كثيرا فمن الدواوين ديوان حسان رضى الله عنه رأيته بخطه وقد أبدع فى تنميقه ، وكتب على حواشيه الألفاظ الغريبة ، ونزهة الألباب الجامع لفنون الآداب ··· وله تشطير على لاميه ابن الوردى مشهور) (١) ·

ومن دواوين الشعراء التى كتبها الادكاوى ديوان « المتنبى » ·· الذى نقل نصفه الطنطاوى حيث نراه يقول حول مطالعاته (ديوان المتنبى ·· وقد نقلت نحو نصفه من نسخة مهمشة بخط الأديب الادكاوى) (٢) ·

---

(١) الجبرتى عجائب الآثار جـ ١ ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥ ·
(٢) كراتشكوفسكى : حياة الشيخ عياد ص ١٣٣ ·

وله أيضا شواهد على شرح لاميه العرب للمبرد لشعر الشنفرى، نجده كذلك ضمن مطالعات وشروح الشيخ عياد الطنطاوى (شرح لامية العرب للمبرد ٠٠ بشواهد الأديب الشيخ عبد الله الادكاوى) (١) ٠

فعند الشيخ الادكاوى ، نرى بدون شك ، اتصالا بالقيم الثقافية العربية ولكن ذلك لا يتعدى الاطار العام للحركة الذاتية للمضمون الدينى واللغوى فى ثقافة عصره ٠

فديوان حساب بن ثابت له قيمته الدينية واللغوية معا ، فهو أولا شاعر النبى والمدافع الغيور عن العقيدة الدينية الجديدة ، وهو ثانيا شاعر مخضرم ، يمتلىء شعره بالألفاظ اللغوية والغريبة ٠ التى تكشف عن طور من أطوار اللغة العربية وهذا التميز اللغوى فى شعر حسان ، هو الذى دفع الشيخ الادكاوى بوضع شرحه للألفاظ الغريبة كحاشية لديوان حسان ٠

ونزهة الألباب الجامع لفنون الأداب – كما يقول الجبرتى – هو كتاب « نزهة الالبا فى طبقات الأدبا » للغوى العربى ابن الانبارى (ت ٥٧٧ هـ) ٠٠ الذى كان يطلق على (النحو واللغة والعروض) ٠٠٠ اسم « علوم الأدب » ٠٠ أو « فنون الآداب » ٠

فالاطار العام لكتاب ابن الأنبارى عن الأدب يدور أيضا فى دائرة العلوم اللغوية والنحوية ٠

أما تشطير الشيخ الادكاوى على لامية ابن الوردى ٠ فهو نظم خاص بمشكلات الأعراب ٠٠ بالاضافة الى ذلك فان عمر بن المظفر بن الوردى (١٢٩١ – ١٣٤٩م) هو أديب لغوى وفقيه شافعى ، له شروح على الفية ابن مالك والفية ابن معطى ٠٠ وله كتاب « الحاوى

---

(١) المرجع نفسه ص ١٣٢ ٠

الصغير » فى الفقه الشافعى ، والشهاب الثاقب فى الصرف ٠

وفى نفس هذا الاطار اللغوى يمكننا ان نرجع عناية الأديب الشاعر الادكاوى بديوان المتنبى ، ولامية العرب بشـــرح المبرد للشنفرى ٠

واذا كان الأدب الرسمى قد انحصر فى ذلك الاطار اللغوى المحدد ، فان الآداب الشعبية قد استطاعت التغلب على شكلية وضيق افق الحياة الأدبية فى ذلك العصر ٠

ولقد ظهرت الرغبة فى اصلاح تلك الحياة الأدبية والروحية بين جماهير الشعب خاصة ٠ وكما انقسمت الحياة الفكرية وقتئذ الى شعبتين أساسيتين تعنى احداهما بالمعارف العلمية ، وتعنى الثانية بالمعارف الصوفية ٠ انقسمت السير الشـعبية كذلك الى شعبتين أساسيتين تعنى أحداهما بالقصص التاريخية التى تتحدث عن سير الأبطال التاريخيين ، وتعنى الثانية بالقصص الدينى ٠٠٠ فقد راحت الجماهير الشعبية تبحث (عن العزاء فى الأدب الشعبى الذى يمتد من الأغنية والموال الى السيرة الشعبية وكانت وسيلتهم لتلقى هذه الفنون هى السماع والرواية الشفوية ، وذلك لعجزهم عن القراءة والكتابة ٠ وانقسمت السيرة الشـعبية الى شـعبتين رئيسيتين تعنى أحداهما بالقصص الدينى فتتحدث عن « سيرة السيد البدوى (وفاطمة بنت برى أو عن سيرة « سيدى ابراهيم الدسوقى » ٠٠٠ وتعنى الثانية بالحديث عن الأبطال التاريخيين الذين يمثلون أمجاد الماضى وبطولاته من أمثال « ابى زيد الهلالى » و « عنتره » و « الظاهر بيبرس » و « سيف بن ذى يزن » وغيرهم وهكذا تراجعت أغلب الفنون الأدبية فى هذا العصر الى ميدان الأدب الشعبى) (١) ٠

---

(١) د٠ عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية ص ١٣ ، ١٤ ٠

لقد كانت للسير الشعبية الدينية جوانبها الاجتماعية والسياسية ، فكان « القطب الديني » ، أو « الولى » الصوفي مثل الجماعة « المريدين » ، أو ما كان يطلق عليهم جماعة « الفقراء » ٠٠ أملا في الخلاص من نير الطبقات الارستقراطية والاقطاعية ٠

كما كانت السير الشعبية التاريخية ، تستلهم صراع العرب السياسي مع حكام الشعوب الأخرى ، ولعلنا نجد في الهلالية والظاهر خير مثال على هذا الصراع السياسي الذي يعبر أوضح تعبير عن (وجود شعور قومي مشترك في جميع الشعوب العربية) (١) ٠

فلقد قامت الهلالية باذكاء وشحذ تلك المشاعر ، والعمل على البلوغ بها الى الكمال الممكن كما تتصوره الجماهير العربية (بما يحسونه من الفارق بين المثال والواقع من ناحية ، وبما ينتقدون به ذواتهم ومجتمعهم من ناحية أخرى) (٢) ٠

ونرى الكثير من الأغاني والأشعار الشعبية تتحدث عن مجتمع الفلاحين المحليين ، وما وقع فيه من ظلم وقهر واستغلال ٠ ولقد استطاع الخيال الشعبي ان يبث خلال السير الشعبية عواطف هؤلاء الفلاحين وأمانيهم وآمالهم في التغلب على البؤس والشقاء الاجتماعي والسياسي ، الذي كان يحيطهم به حكامهم وساستهم ٠

وعصور الانحطاط الأدبي لم تعدم كل مجالات التعبير الفني ٠٠ نذكر ذلك ونحن نفكر في التقدم الهائل في فن « العمارة » في ذلك العصر ٠ ورغم ما سلبه السلطان سليم من أعمدة رخامية من مساجد القاهرة وقصور الأمراء ، ورغم ما أسره من طوائف البنائين والمهندسين

---

(١) د٠ شكري : الحضارة العربية المكتبة الثقافية (١٧٢) دار الكاتب العربي القاهرة ١٩٦٧ ٠ ص ٦٧ ٠

(٢) د٠ عبد الحميد يونس : الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ٠ مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٦ ص ١٩٩ ٠

والنجارين والحدادين والمرخمين والمبلطين (وذلك بسبب المدرسة التي أراد ابن عثمان ان ينشئها باسطنبول مثل مدرسة السلطان الغوري) (١) نقول رغم ذلك فان العمارة الاسلامية قد شهدت في تلك الفترة ازدهارا عظيما .

ويسرد الجبرتي اسماء العديد من العمارات التي بناها الأمراء بالقاهرة والاقاليم وتجديد قبة مسجد الامام الشافعي فى عهد على بك الكبير يعتبر حقيقة من الأعمال الفنية الخالدة .

ولقد بلغت « عمارات » عبد الرحمن كتخدا (ت ١١٩٠ هـ) (ثمانية عشر مسجدا وذلك خلاف الزوايا والاحواض والقناطر ... وكان له في هذه الأبنية وحسن وضع العمائر ملكة يقتدر بها على ما يرومه من الوضع من غير مباشرة ولا مشاهدة ولو لم يكن له من المآثر الا ما أنشأه بالجامع الأزهر من الزيادة والعمارة التى تقصر عنها همم الملوك لكفاه ذلك وأيضا المشهد الحسينى ومسجده الزينبى والنفيسى (*) (٢) .

وندرك من وصف الجبرتى لمنزل الأمير عبد الرحمن كتخدا ، مدى التقدم فى فن الزخرفة والتصوير .. (وللمترجم عمائر كثيرة وقناطر وجسور فى بلاد الارياف .. ومن عمائره القصر الكبير المعروف به بشاطىء النيل فيما بين بولاق ومصر القديمة وكان قصرا عظيما .. وقد هدم فى سنة خمسة ومائتين . ومن عمائره أيضا دار سكنه بحارة عابدين وكانت من الدور العظيمة المحكمة الوضع والاتقان لا يماثلها دار بمصر فى حسنها وزخرفة مجالسها وما بها

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور جـ ٣ ص ١١٩ .

(★) يقصد مسجد السيدة زينب ومسجد السيدة نفيسة .

(٢) الجبرتى : عجائب الآثار . جـ ٢ . ص ٧ .

من النقوش والرخام والذهب المموه واللازورد وأنواع الأصباغ وبديع الصنعة والتأنق والبهجة) (١) ٠

ولم يشهد هذا العصر تقدما فى فنون العمـارة والزخـرفة والتصوير فحسب ، بل شهد ميل بعض الشعراء الى « فن الموسيقى » و « الألحان » ٠٠٠ وفن تجديد « الخطوط » ٠

ويذكر لنا الجبرتى عن الناظم الناثر اسـماعيل الظهـورى (ت ١٢١١ هـ) انه (كان انسانا يتكسب بالكتابة وحسن الخط وقد كان جوده (**) واتقنه على أحمد أفندى الشكرى وكتب بخطه الحسن كثيرا من الكتب والمصاحف ٠٠ وله معرفة جيدة بعلم الموسيقى والألحان وضرب العـود وبنظم الشـعر وله مدائـح وقصـائد وموشحات) (٢) ٠

فاذا كانت أغلب الفنون الأدبية قد تراجعت فى ذلك العصر الى ميدان الأدب الشعبى ٠ فان فنون العمارة والزخرفة والتصوير والموسيقى قد تقدمت للامام كمجال رحب للتعبير الفنى عن مشاعر العصر ٠ فعصور الانحطاط الأدبى اذن (لم تستطيع أن تطمس كل مجالات التعبير الفنى عن المشاعر) (٣) ٠

ولقد استمر تقدم الفنون المعمارية والمدنية فى عهد محمد على يشهد على ذلك ، المعمار الفنى الضخم للقلعة ولمسجده بها ٠ كما شهد عصر اسماعيل نموا مطردا فى الفن المعمارى ، متمثلا فى قصوره الشائقة ٠٠ وان كان فن العمارة وفن الموسيقى فى عصر اسماعيل

---

(١) الجبرتى : المرجع نفسه ص ٧ ٠

(**) كذا بالأصل ٠

(٢) المرجع نفسه ص ٢٨٤ ٠

(٣) د٠ عبد العزيز الأهوانى : ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار فى الشعر الأنجلو المصرية ١٩٦٢ ٠ ص ١١ ٠

قد خلع عنه الشكل الاسلامي ، متخذا الشكل الأوربي شأنه في ذلك شأن بقية مظاهر الحياة الثقافية والحضارية ٠

واذا تأملنا التطور اللاحق للحياة الأدبية في عصر كل من محمد على واسماعيل ، فسوف نرى أنه قد خضع لظاهرتين بارزتين وهما :

بعث التراث العربي القديم ، والاتصال بثقافة الغرب الأوربي ٠

ويمكنا أن نأخذ الشيخ حسين المرصفي (ت ١٨٨٩) كمثال على ذلك التطور الأدبي ٠

فلقد حاول المرصفي في كتابه « الوسيلة الأدبية » المساهمة في احياء التراث الأدبي العربي ٠ كما نجد عنده ثمة محاولة ــ وان كانت ضعيفة الى حد ما للاتصال بثقافة الغرب حيث نراه يأخذ في تعلم اللغة الفرنسية ٠ ولا يتضح لنا ذلك في كتابه « الوسيلة الأدبية ٠

ولكنا نستطيع ان نستشف ذلك من مخطوط له تحت عنوان « دليل المسترشد في الانشاء » يتحدث في بعض فصوله عن « فن الترجمة » ويترجم بعض الحكم الشعرية للشاعر الفرنسي « لافونتين » عن « فضل العلم » مبينا الفرق بين « العالم الفقير » « والجاهل الغنى » ٠

ولكننا لانزعم ان اتصال المرصفي بالثقافة الغربية كان قد وصل الى درجة الاستيعاب والاحاطة ٠ بل كان بمثابة بداية نحو هذا الاتصال في المجال الأدبي ٠

والمرصفي عنوان لمدرسة عاشت منذ سبعينات القرن الماضي ، وهي مدرسة دار العلوم ٠ التي صارت تعرف اليوم بكلية

دار العلوم . وهى المدرسة التى حمل عليها الدكتور طه حسين حملته الشهيرة فى مقدمة كتابه « فى الأدب الجاهلى » فى عام ١٩٢٦ . حيث اتهم مناهجها الأدبية بالعقم الشديد .

والحقيقة ان اتجاه هذا المعهد الأدبى كان يمثل فى أخريات القرن التاسع عشر نزعة ثقافية حاولت الدفاع عن الآداب العربية مع الاستفادة فى الوقت نفسه من التيارات الفكرية الأوربية .

وكنتيجة طيبة للتطور السياسى والاجتماعى الذى صاحب عصر اسماعيل ، فلقد زخر مجتمع ١٨٧١ في مصر بالأجانب من مختلف البلاد و (زدادت الروابط الثقافية والجنسية بين المستعمرين والمستعمرات ، وأصبحت فى حياة المستعمرين أبلغ خطرا وأبعد نتيجة . فقد فرضت الدول المستعمرة ثقافتها ولغتها وفى كثير من الأحيان نظمها وتقاليدها على البلاد المستعمرة ، وانثالت الهجرات نحو المستعمرات البكر تتوطنها ، وتحيا حياتها فى أرجائها بحثا عما ضنت عليهم بلادهم به من خير ، وتنقل الى هذه البلاد أفكارها وعاداتها ونظمها ، فكان هذا أول بادرة من بوادر تغلغل الحضارة الغربية والثقافية والأوربية فى المستعمرات مما دعى فى النهاية الى نمو الروح القومية واطرادها فى المستعمرات نحو حياة أكمل) (١) .

ويدور الحديث هنا عن الاستعمار المالى ، الذى تغلغل فى حياة المجتمع المصرى قبيل الاستعمار العسكرى . ومما هو ملفت للنظر ، هذا التناقض فى التطور التاريخى الذى يولد من الاستعمار الثقافى حركة نمو الروح الوطنية .

---

(١) د. حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط جـ ١ ط ١ ١٩٥٣ النهضة المصرية ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

واذا كانت فكرة الوطن قد أخذت في التطور مع الطهطاوى ، الا انها قد ظلت تحمل عنده مضامين دينية أكثر منهـــا سياسية أو اجتماعية ٠

ونلتمس عند المرصفى فى بعض ما كتبه ـ مثل رسالته فى « الكلم الثمان » ـ عن فكرة الوطن بعض المضامين الاجتماعية ٠

فهو يعرف الأمة بقوله (الأمة جملة من الناس تجمعهم جامعة، وهى بحسب الاستقراء اللسان والمكان والدين ٠٠ أما الأمة بحسب اللسان فهى أسبق استحقاقا لهذا الاسم وهو بها اليق ٠٠ وهى ادخل فى الغرض من الاجتماع اذ بوحدة النطق يتم الائتناس) (١)٠

وهنا يلاحظ بعض الدارسين ، ان الأمة عند المرصفى (ذات معنى أكثر شمولا من المعنى الدينى ، فهى تستعمل للدلالة على الرابطة التى تربط بين مجموعة من الناس بعضهم ببعض عن طريق اللغة والمكان أو الدين ، ولكن رباط اللغـــة هو الرابط الحقيقى للأمة وذلك لأن وحدة اللغة هى التى تحقق بطريقـــة أفضل غاية المجتمع ، ومهما كانت الأسس التى تقوم عليهـا الأمة فلكل دوره الفعال فى الجماعة وعلى الحكومة أن تأخذ بنظام الشورى ، كما انه ينبغى على الحـــكام الا يعـــاملو الشعب The Common Folk على انهم من البهائم Beasts (٢) ٠

ولقد كان لنمو الروح الوطنية فى عصر اسماعيل الأثر الحاسم فى تقدم النهضـــة الثقافيـــة والتعليمية ٠ وفى تطورها الكمى والنوعى معا ٠

---

(١) حسين المرصفى : الكلم الثمان ، مطبعة الجمهورية بمصر ١٩٠٣ ٠ ص ٤ ٠

(٢) Haurani (Albert) : Arabic Thought in Libral age. Oxford Univ : Press. London. 1962. p. 194.

ويتمثل التطور الكمى فى تلك النهضة فى افتتاح عدد جديد من المدارس الابتدائية بالقاهرة والاسكندرية • وفى تنظيم المدارس الحربية وانشاء مدارس لأركان الحرب •

كما يتمثل التطور النوعى فى النهضة الثقافية والتعليمية فى عصر اسماعيل فى اقامة مدرسة من نوع جديد على الحياة السياسية المصرية وقتئذ • وهى مدرسة « الادارة » وذلك لتخريج رجال القانون • وهذا مما ساعد بلا ريب على نمو الفكر القانونى والسياسى • فلقد كان (لمدرسة الادارة بعد ذلك الفضل فى تخريج عدد كبير من الزعماء البارزين فى تاريخ مصر الحديث) (١) •

كما يتضح لنا هذا التطور النوعى فى النهضة الثقافية وقتئذ فى مجالين خطرين يرتبط احداهما بظهور الصحافة الأهلية ، ويرتبط الثانى ببداية التفكير فى اصلاح وتجديد المناهج التعليمية بالأزهر •

وكانت الصحافة فى عصر محمد على تكاد تقتصر على جريدة « الوقائع المصرية بموضوعاتها » الرسمية •• ولغتها العربية — التركية الركيكة •

ولكن ما أن أخذ المجتمع المصرى يتشكل اقتصاديا وثقافيا فى عصر اسماعيل ، حتى ظهرت الصحافة الأهلية ، لتلعب دورها فى تكوين الرأى العام المصرى •

وذلك بالاضافة الى ظهور العديد من الصحف الأجنبية التى صاحبت تغلغل الأجانب فى مرافق الحياة المادية والثقافية فى مصر وقتئذ • ولم ينل الأزهر فى عهد محمد على من الاصلاح شيئا يذكر

---

(١) د• عبد المحسن طه بدر : تطور الرواية العربية • ص ٢٦ •

على الاطلاق · فلقد اكتفى الوالى المصرى ، خوفا من اثارة رجـــال الأزهر ، بارسال البعثات التعليمية للخارج ·

ولكن ما ان جاء عصر اسماعيل ، حتى بدأت الدعوة لاصلاح المناهج الأزهرية لكى تساير روح العصر ·

ففى عام ١٨٦٥ أخذ الشاب محمد عبده يعلن بداية هجومه على « مشايخ الاحتمالات » وعلى مناهج علومهم التى لم تعرف روح اليقين العلمى ·

فلقد (تأثر التعليم فى الأزهر بالنهضة التعليمية العامة ، وبدأ الشعور بالحاجة الى اصلاح التعليم بالأزهـــر وطوائفـــه ، عبر محمد عبده الطالب بالمسجد الأحمدى بطنطا (١٨٦٥) عن ملله من دروس « مشايخ الاحتمالات » وقال انه « ظل يكنس ذهنـــه وينظفه منها بضع سنين فلم ينظف تمام النظافة كما راح يلتمس العلوم الحديثة عند من يعرفها · ثم تأثر الشيخ بدعوة الســـــيد جمال الدين الأفغانى (*) الاصلاحية وبطريقته الجديدة فى قراءة الكتب القديمة والحديثة · وبدأ الشيخ محمد عبده وهو طالب بالأزهـــر ينشر فى جريدة الأهرام (١٨٧٦) مقالات عالج فيها مسائل خطيرة « كاصلاح اللغة العربية والدعوة الى تدريس العلوم العصرية » ومضى محمد عبده بعد ذلك يدعو الى اصلاح الأزهر حتى جعل منه رسالة حياته) (١) ·

(★) نزل بمصر فى ٢٣ مارس ١٨٧١ ونفى نصا بقرار من مجالس الوزراء الذى كان رئيسه وقتئذ الخديو توفيق نفسه فى ٢٦ اغسطس سنة ١٨٧٩ · راجع : عبد الرحمن الرافعى الثورة العرابية · ص ٣٥ ·

(١) د· أحمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراســـات تاريخية فى النهضـــة العربية + مطبعة معهد الدراسات العربية · القاهرة (بدون تاريخ) الفصـــل السادس (مصر) ص ٥٦٤ ·

ومن التطورات الهامة فى مجـــال التعليم والثقافة فى عصر اسماعيل ظهور مدرسة دار العلوم ، التى ظهر معها لأول مرة فى تاريخ الحركة الثقافيـــة المصرية ما يعـــرف بالمحاضرات العامة أو ما كان يطلق عليه وقتئذ اسم « الدروس العموميـــة » · وهى الدروس التى تكونت على أساسها مدرسة دار العلوم ·

فى عام ١٨٧١ (رتبت دروس عمومية بالانفتيار (**) الذى كان يسمى بدار العلوم بسراى درب الجماميز فى ربيع الثانى ســـنة ١٢٨٨ هـ يولية سنة ١٨٧١ · وكان مدرســـو تلك الدروس من أفاضل الاعلام من المصريين والأورباويين وكان يحضرها المرحـــوم بنفسه (***) وكبار موظفى الحكومة وموظفى نظارة المعارف وطلبة المدارس العالية وفريق من طلبة الأزهر) (١) ·

ويتبين لنـــا من خطة تلك الدروس العموميـــة · أن مناهج الدراسة فى تلك المدرسة لم تقتصر على العلوم العربية أو الشرعية · بل كانت تتضمن كذلك دراســـة العلوم الطبيعية وفن الآلات (التكنولوجيا) · وعلوم الفلك · ومن هنا أطلق عليها فى ذلك الوقت مدرسة دار العلوم ·· بمعنى انهـــا تقوم بتدريس العلوم بصفة عامة سواء فى ذلك العلوم العربية والشرعيـــة أو العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية ·

ونقتبس خطة الدروس العمومية بتصرف ، وذلك لأنها قد جاءت فى الأصل على شكل جدول يشتمل على أسماء الســـادة المدرسين ومواد الدراسة وأيامها ، والمدة الزمنية للمحاضرات ·

(★★) الحجر · المدرجة ·

(★★★) يقصد الخديو اسماعيل ·

(١) أمين سامى : التعليم فى مصر حتى سنة ١٩١٤ · مطبعة المعارف بمصر ١٩١٧ ص ٢٣ ·

(حضرة الشيخ حسين المرصفى : علوم الأدب ، اسماعيل بك (باشا) الفلكى ناظر مدرسة الهند سخانة : علوم الفلك باللغة العربية المسيو فيدال ناظر مدرسة الادارة والألسن : فن السكك الحديدية باللغة الفرنسية ويترجم بالعربية ·· جناب جبون بك ناظر مدرسة العمليات : فن الآلات باللغة الفرنسية ويترجم بالعربية ·· جناب مسيو هنرى بروكش (باشا) ناظر مدرسة اللسان المصرى القديم : التاريخ العام باللغة الفرنسية وبترجمه حضرة يعقوب أفندى صبرى وكيل مدرسة الادارة · حضرة الشيخ عبد الرحمن البحراوى مفتى الحقانية : فقه أبى حنيفة النعمان · الشيخ أحمد المرصفى تفسير وحديث · جناب المسيو بكنبت : علوم الطبيعيات مع شرح الآلات باللغة الفرنسية والمترجم أحمد أفندى منصور المحضر بقاعة الطبيعيات) (١) ·

ويتضمن الجدول السابق أسماء أخرى لعديد من الأساتذة الأجانب فى علوم مختلفة ، كعلم النبات ، والحيوان ·· الخ ·

ولقد كانت تلك المحاضرات هى النواة الأولى لانشاء مدرسة دار العلوم · بناء على اقتراح مقدم من على مبارك فى ٣ يوليو عام ١٨٧٢ ·

(ومن هذا التاريخ ترك الشيخ حسين المرصفى التدريس بالأزهر الشريف ليكون أول أستاذ للأدب العربى وتاريخه بدار العلوم) (٢) ·

---

(١) المرجع نفسه ص ٢٤ ·

(٢) محمد عبد الغنى حسن : تراجم عربية دار الكاتب العربى (بدون تاريخ) القاهرة ص ١٤٣ ·

وتكون فى ٢٨ مارس ١٨٨١ أول وزارة للمعارف تحت اسم « قومسيون » المعارف كان من ضمن أعضائه كل من الشيخين الجليلين : الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ٠ الذى كان يتولى وقتئذ رئاسة تحرير الجرنال الرسمى (الوقائع الرسمية) والشيخ حسين المرصفى المربى الفاضل ٠ والمؤرخ الأدبى الجليل .

ولقد كان هذا القومسيون ثمرة جهد مخلص للمصريين فى سبيل اقامة نظام وطنى للتعليم ٠ بيد أن هذا الجهد لم يعمر طويلا ، وذلك بسبب التدخل الأجنبى والاحتلال الانجليزى ٠ فعندما بذلت (أضخم محاولة لتأسيس نظام التعليم القومى فى مصر فى سنة ١٨٨١ عندما شكل « قومسيون » لاعادة تنظيم التعليم ، فوضع تقريرا مستفيضا عن تنظيم التعليم الابتدائى ونشره – وهو تعليم سواء الشعب على أساس استخدام المكاتب الأهلية بعد تنظيمها وربطها بالنظام العام ، كما أورد مقترحات عملية لرفع مستوى التعليم فى المدارس الأخرى ، وبدء فى تنفيذ مقترحات القومسيون ، حتى دهم البلاد الاحتلال البريطانى ، فأوقفت النهضة التعليمية ، ووضع للتعليم سياسة جديدة قائمة على التطبيق والحصر والقصد فى الانفاق) (١) ٠

ويجب علينا أن نسجل هنا الموقف المشرف للشيخين الجليلين : الأستاذ الامام محمد عبده والشيخ حسين المرصفى ، تجاه التدخل البريطانى منذ اللحظات الأولى من مقاومة العرابيين له ٠

ففى ١٧ يوليو ١٨٨٢ أى بعد ستة أيام من ضرب الاسكندرية فى ١١ يوليو ١٨٨٢ م ٠ شكل عرابى « المجلس العرفى » كمجلس عسكرى لادارة المعركة ، كما شكل « الجمعية العمومية » كمجلس

---

(١) د٠ عزت عبد الكريم : دراسات تاريخية ٠ ص ٥٦٥ ٠

لادارة شئون البلاد • بعـــد أن أعلن خلع الطاعة للخديو توفيق عندما تبين للعرابيين تحالفه مع العدو • وعندما علم الخديو بهذه الاجراءات قرر عزل عرابى من منصبه • وفى يـوم ٢٢ يوليـــو سنة ١٨٨٢ اجتمعت الجمعية الوطنية • وتليت (عليهـــ الأوامر الصادرة من الخديو والمنشورات التى أصدرها عرابى ، وتولى هذه التلاوة الشيخ محمد عبده •• وألقى على باشا الروبى خطبة تناول فيها الخديو بالطعن والقدح ، وتليت فتوى شرعيـــة من الشيخ محمد عليش والشيخ حسن العدوى والشيخ محمـــد أبو العـلا الخلفارى بمروق الخديو عن الدين لانحيازه الى الجيش المحـارب لبلاده •• واتفقت آراؤهم على عدم قبول عزل عرابى •• ووجوب توقيف أوامر الخديو وما يصدر عن نظارة الموجـودين معـــه فى اسكندرية كائنة ما كانت لأى جهة من الجهات وعدم تنفيذها حيث ان الخديو خرج عن قواعد الشرع الشريف والقانون المنيف) (١) •

وقع على قرار الجمعية العموميـــة نحو خمسمائة من العلماء والقضاة والمفتشين ومديرى المديريات وكبـــار الأعيـان ومشايخ البلاد • وكان من ضمنهم شيخ الأزهر (الشيخ محمد الانبابى) وقاضى قضاة مصر (عبد الرحمن نافذ) ومفتيها ونقيب الاشراف (وبطريرك الأقباط الأرثوذكس ، وحاخام اليهود) (٢) •

وكان من الموقعين على نص قرار الجمعية العمومية (الشيخ حسين المرصفى) (٣) • وكان الأستاذ الامام هو الذى تولى قراءة نص الاتهامات الموجهة الى الخديو توفيق •

---

(١) عبد الرحمن الرفعى : الثورة العرابية ص ٣٩١ •

(٢) المرجع نفسه ص ٣٨٩

(٣) المرجع نفسه ص ٣٩١

لقد كان فى انشاء مدرسة دار العلوم التى جمعت بين تدريس العلوم الشرعية والعلوم المدنيــة اشارة البدء فى اصلاح المناهج الأزهرية ٠

ولكن سرعان ما تأثر الأزهر والفكر الدينى بصفة عامة بنهضة فكرية شاملة حمل لواءها السيد جمال الدين الأفغــانى وتلميذه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ٠ وهى النهضة الفكرية التى عملت على اخراج الفكر الدينى من نطاق حدوده العقائدية البحته ، لتربط بينه وبين التيارات الفكرية الحديثة وذلك من الناحيتين السياسية والاجتماعية ٠

ويمكننا أن نلمس هنا بداية التغير الحقيقى فى الفكر العربى الحديث ٠ وخاصة من ناحية موقفه من الثقافة الغربية ٠

وهى الثقافة التى لم يشك جيــل الطهطاوى فى قيمتهــا الاجتماعية والسياسية ٠ لم تعالج وقتئذ بالتحليل النقدى ٠

فلقد كانت القيم الثقافيــة والحضــارية التى تعرف عليها الطهطاوى فى فرنسا ، عبارة عن تجسيد للأمانى والمثل العليــا للبرجوازية الفرنســية ٠ وان كانت تلك المثل قد تبلورت بحيث تبدو على انها الأمانى والمثل العليا للانسانية بصفة عامة ٠

حركة الاصلاح الدينى عند الأفغانى ومحمد عبده :

(أ) يصف الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده الحالة الاجتماعية والسياسية التى هيأت المناخ الفكرى لحركة الاصلاح الدينى فى مصر فى القرن التاسع عشر بقوله (كان المصريون قبـــل ســنة ١٢٩٣ هـ (١٨٧٦ م) يرون شئونهم العامة والخاصة ملكا لحاكمهم الأعلى ، ومن ينوب عنه فى تدبير أمورهم ٠٠ ولا علاقة بينهم وبين الحكومة سوى أنهم مملوكون لها ، مصرفون فيما تكلفهم به الحكومة ، وتفرضه عليهم ٠ وكانوا بعيدين غاية البعد عن معرفة ما عليه الأمم الأخرى ، سواء كانت شرقية أم غربية ٠

ومع سفر البعض منهم الى البلاد الأوربية ، وما جاورهم من البلاد الاسلامية ، أيام محمد على باشا الكبير ، وابراهيم باشا ، لم يشعر الأهالى بشىء من ثمرات تلك الأشـــعار ولا فوائد تلك المعارف التى حصلوا عليهـا واكتسبوهـا ٠ وقد أنشأ اسماعيل مجلس الشورى فى مصر سنة ١٢٨٣ الهجرية (١٨٦٦ م) ومع ان الغاية من انشائه ان يكون للأهالى رأى فى شئون بلادهم يرجع اليه الحاكم ، فان أحدا منهم ولا من أعضاء هذا المجلس نفسه كان له ذلك الحق ٠٠ وبينما الناس على هذه الحال ، لا كاتب ينبههم ، ولا خاطب يوقظهم جاء الى هذه الديار فى سنة ١٢٨٨ هـ (١٨٧١ م) رجل بصير فى الدين ، عارف بأحوال الأمم ، واسع الاطلاع ٠ جم المعارف جرىء القلب واللسان وهو المعروف باســـم جمال الدين الأفغانى ٠٠ وكانت مدرسته بيته ، فاشتغل بتدريس بعض العلوم العقلية ٠٠ وهو فى جميع أوقات اجتماعه بالناس ، لا يســأم من الحديث فيما ينير العقل أو يلفت الفكر الى النظر فى الشئون العامة

مما يمس مصلحة البلاد وسكانها ·· ولا زال هذا الشعاع يقوى بالتدريج البطيء الى ان نشبت الحرب بين الدولة العثمانية ودولة الروسيا فى سنة ١٢٩٣ هـ ـ (١٨٧١ م) (١) ·

لقد وضع الأستاذ الامام عام ١٨٧٦ حدا فاصلا بين عدة عوامل كانت ذات أثر بالغ فى الحياة السياسية والثقافيـــة بمصر منذ سبعينات القرن التاسع عشر ·

وهو اذ ينتقد هنا عجز جيل الطهطاوى فى نشر معرفته عن الأمم الأخرى بين طبقـات الشعب ، نـراه يشير الى أثر الحـرب الروسية التركية فى عام ١٨٧٦ ، فى توعية الناس بشئون الدولة العثمانية · التى كانت وقتئذ صاحبة السيادة عليهم ·

انطلقت الجرائد الأوربيـــة والعربية فى نشر حوادث تلك الحرب ·· ويرصد الامام النتائج العامة للحرب الروسية ـ التركية فى عام ١٨٧٦ بقوله (لم يكن ما ينشر فى الجرائد محصورا فى حوادث الحرب ، بل اجترأ الكثير منها على نشر ما عليه ســائر الأمم فى سيرتهم السياسية والاجتماعية وزادوا على ذلك نشر ما كان قد بدأ فى الحكومة المصرية من سوء الأحوال المالية ، وكثر المتحدثون بما يكثر فى تلك الجرائد · وأخذ الشيخ جمال الدين فى حمل من يحضر مجلسه من أهل العلم وأرباب الأقلام على التحرير ، وانشاء الفصول الأدبية والعلمية فى موضوعات مختلفة ، لاتخرج جامعتها عن اصلاح الأفكار ، وتهذيب الأخلاق ، فتسابق الى ذلك الكتاب ، وتيارت الأقلام ، وأخذت الحرية الفكرية تظهر فى الجرايد الى درجة يظن الناظر فيها انه فى عالم خيال ، أو أرض غير هذه الأرض) (٢)

(١) محمد عبده مذكرات الامام محمد عبده · بتحقيق طاهر الطناحى دار الهلال (بدون تاريخ) ص ٤٤ ، ٤٥ ·

(٢) المرجع نفسه ص ٤٧ ، ٤٨ ·

ولم يقف أمر السيد جمال الدين الأفغاني في مصر عند حد الدعوة الى اصلاح الأفكار ، ومهاجمة فكرة الحكومة الاستبدادية ، ونظام الحكم المطلق ، بل ان (السيد جمال الدين قد أسس حزبا في مصر باسم « الحزب الوطني الحر » وكان من أغراضه السعي لتنازل الخديو اسماعيل) (١) ٠

وفي ٢٦ يونية ١٨٧٩ تنازل الخديو اسماعيل عن الحكم ، وكلف الخديو توفيق محمد شريف باشا بتأليف الوزارة — وكان محمد شريف من الذين تلقوا تعليمهم بباريس ، فكان على دراية بأحوال العالم الحديث ، وبنظم الحكم الدستورية في أوربا ٠٠ وقد فهم مطالب معاصريه ، فعمل على وضع دستور للبلاد في سنة ١٨٧٩ ٠ حالت الظروف التي أحاطت بخلع الخديو اسماعيل وتدخل فرنسا وانجلترا في شئون مصر المالية دون العمل به

ثم تفاقمت الظروف السياسية للبلاد ، الأمر الذي أدى الى عزل شريف باشا من الوزارة ، وتولى الخديو توفيق رئاسة النظار بنفسه ٠ وذلك لضرب الحركة الدستورية ولنفي أكبر الرؤوس المدبرة لها وقتئذ ، وهو السيد جمال الدين الأفغاني ٠

وفي ٧ سبتمبر ١٨٧٩ تشكلت وزارة مصطفى رياض باشا بايعاز من فرنسا وانجلترا ٠

الا أن شخصية مصطفى رياض في التاريخ المصري الحديث ، وعند أغلب المؤرخين تبدو متناقضة ، فهو من ناحية ذو ميول استبدادية غاشمة ، ومن ناحية أخرى ذو شخصية سياسية وادارية محنكة ٠

وهو وأن كان وقف ضد الحركة الدستورية ، الا أنه صاحب اصلاحات اجتماعية واقتصادية وثقافية ٠ كانت تهدف الى الحد من

---

(١) المرجع نفسه ص ٥١ ٠

سيطرة كبار الأعيان في الريف المصرى ٠ والى اصلاح جريدة الوقائع المصرية ، وانشاء المجلس الأعلى للمعارف ولقد انتخب فى هذين المجلسين الأخيرين الشيخ محمد عبده ٠

كانت اصلاحات رياض الاجتماعية والثقافيه محل عطف الشيخ محمد عبده وغيره من الفئات المستنيرة ٠٠ ولكنها كانت محل سخط كبار الأعيان من المصريين ٠

يضاف الى ذلك ان وزير الحربية فى وزارة رياض ، وهو عثمان رفقى كان موضع كراهية العرابيين لتعصبه لبنى جنسه من الضباط والجنود الجراكسة ٠ وتعيين وزير للحربية من أمثال عثمان رفقى كان أيضا بايعاز من الدول الأجنبية حتى تحد من طاقه الجيش المصرى ٠ ومن هنا كان سخط العرابيين على رياض باشا ، وتحالفهم مع أحد كبار الأعيان وهو « سلطان باشا » ٠٠ الذى انتهى به الأمر الى خيانة العرابيين أثناء القتال فى التل الكبير ٠٠ الأمر الذى قدره الخديو توفيق وذلك بمنحه مكافأة مالية ضخمه نظير خدماته فى المساعدة على هزيمة العرابيين ٠ كما منحت ملكة بريطانيا لقب « سير » ٠

واذا تأملنا جوهر الأمور فى اصلاحات رياض باشا ، نجدها لاتخرج عن تعميق لجذور النظام النقدى والمالى فى المجتمع المصرى٠ وهو النظام الذى غرست جذوره فى البيئة المصرية منذ عصر اسماعيل ٠٠ فكان رياض بالطبع أداة منفذة للسياسة الاقتصادية للرأسمالية الأوربية ٠

ولقد كانت المهمة الأساسية للاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية فى عهد وزارة رياض ، هى الاطاحة بسلطة كبار الأعيان فى الريف المصرى ٠٠ وهى سلطة لم تكن بسيطة أو هينة ، فلقد كانت « السخرة » احدى الملامح الأساسية لسلطة الفئات الاقطاعية

في القرى المصرية وقتئذ ·· ولقد تعاطف الأستاذ محمد عبده ، مع تلك الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية لوزارة رياض تعاطفا كليا ·· ويرجع هذا التعاطف الى عمق احســـاس الامام بما كان يعانيه الفلاح المصرى من شقاء وبؤس وعذاب ·· ولا عجب فان الامام محمد عبده فلاح مصرى صميم · قد شاهد بنفسه السخرة التى كان يقوم بها الفلاح المصرى تحت سيطرة كبـــار الأعيان · وما ان الغى رياض السخرة ، وابطل « الكربـاج » والحبس حتى استقبل محمد عبده هذه الاجراءات بحماس بالغ ·· ونحن نلمس هذا الحماس فى وصفه لاصلاحات رياض عندما نراه يقول : (كان أول اصلاح قام به الغاء السخرة الشخصية · وكان التسخير فى البلاد المصرية نوعين : عاما وخاصا ·· أمام العام فهو اكراه الحكومة الأهالى على العمل بغير أجر فى المصالح العامة كاقامة الجســـور والحواجز على الأنهار العظيمة ، وحفر الجداول الكبيرة ، وتشييد كل بناء يقام باسم الحكومة · وأما الخاص فهو ان يلزم الأعيان من دونهم من الأهالى بالعمل فى منافعهم الخاصة بغير أجر ، كالعمل فى المبانى والاراضى بجميع أنواعه ، فكان جميع الوجهـاء وجميع موظفى الحكومة يرهقون الأهالى بهذه السخرة ويقرنوها بالضرب والاهانة ، حتى ان بعضهم كان يضرب الفلاحين لمجرد اللذة ، كما شدد الوزير فى الغاء السخرة بنوعيها ·· ثم ان رياض باشا شرع فى وضع نظام لتوزيع الاعانة على الأعمال العمومية ، يحل محـل السخرة ، كما أشارت لجنة التفتيش العليا من الأجـانب ، وكان أساس هذا النظام التخيير بين العمل البدنى ودفع نقدى للحكومة ، فخفف الويل عن كثير من الفلاحين ، وشعروا بأن أوقاتهم ملك لهم لا للحكومة · وكان من عدل رياض باشـــا فى ذلك ، ان عنف فريد باشا مدير الشرقية لارساله مائتى رجل لاصلاح ما جـرفه السيل من سكة حديد السويس ، اذ طلبت منه مصلحة ســـكة

الحديد العمومية ذلك حسب العادة ٠٠ ولم يكتف بذلك ، بل كتب منشورا عاما لجميع المديرين يحذرهم من مثل ذلك العمل ، وقد كتب صورة هذا المنشور كتاب الداخلية مرارا ، وكلما عرضوا عليه صورة مزقها ، لأنها لم تف بغرضه من التسوية بشأن الأهالى ٠ وقد دعانى فى آخر الأمر الى تحرير ذلك المنشور ، فكتبته ، وذكرت فيه الحادثة وأتذكر ، منه هذه الفقرة : « وليعلم المديرون والأهالى جميعا ان الأهالى ليسوا عبيدا لأحد ، ولا لأحـــد عليهم سلطان ، الا فيما يتعلق بمنافعهم عامة أو خاصة ، وهذا تصريح من رئيس الحكومة النائب عن الجانب الخديو باعتاق الأهالى من عبـــودية التسخير ، بل العبودية للحاكم الأعلى على وجه الاطـــلاق ، وهذا ما لم يكن له مثيل من قبل » (١) ٠

لقد كانت اصلاحات رياض ٠ محل سخط وغضب كبـــار الأعيان ، والخديو توفيق معا ، (ان الخديو توفيق لم تكن له أمنية الا عزل رياض باشا) (٢) ٠

ويضاف الى الاصلاحات البرجوازية لوزارة رياض ، وهو أيضا ما يتعلق ٠الأمر السابق أى الغاء السخرة ، ابطال الضرب بالكرباج والحبس ٠ وقد صدر الأمر بابطال الضرب بالكرباج فى تحصيل الأموال الاميرية ، فعجب كثير من الناس لذلك وقالو : كيف يمكن ان يحصل مال من الفلاح بدون ضرب ٠٠ ثم صدرت الأوامر مشددة تمنع الحبس لتحصيل الحقوق سواء أكانت أميرية أم شخصية) (٣) ٠

يتضح لنا جوهر تلك الاصلاحات التى أطلقنا عليها اســـم الاصلاحات « البرجوازية اذا دققنا فى أساس النظام الذى يطلق

---

(١) محمد عبده : مذكرات الامام ٠ ص ٦٧ ، ٦٨ ٠
(٢) المرجع نفسه ص ٨٩ ٠
(٣) المرجع نفسه ، ص ٦٩ ٠

عليه الأستاذ الامام عبارة « الاعانة على الأعمال العموميــــة » الذى أخذ يحل محل السخرة ، وهو نظام التخيير بين « العمل البدنى » و « الدفع النقدى » للحكومة « والدفع النقدى » هو أساس النظام الرأسمالى أو البرجوازى ٠٠ وهو عبودية فى ثوب جديد ٠

ومن اصلاحات وزارة رياض التى يشير اليها الشيخ محمد عبده الغاء الضرائب ، وهو اصلاح يدخل كذلك ضمن الاطار العـــام للتحول الرأسمالى ، الذى كان يسمح وقتئذ بتنمية محدودة لارباب الصناع، والتجارة ، فلم يمض ر على وزارة رياض باشا بضعة أشهر حتى الغى ثلاثين ضريبة ونيف، من الضرائب الصغيرة التى كانت قد أضرت بالمصنوعات والأعمال التجارية والصناعية الخاصة بالوطنيين ويحال المزارعين وزاد مائة وخمسين ألف جنيه على ضريبة الأطيان العشوريه تعويضا لما فات الغاء تلك الضرائب ، فخف بذلك عن الفقراء ما ثقل عن الأغنيــــاء ، وهو مما لا يمحى أثــره من أنفس الفريقين) (١) ٠

لقد رافقت الاصلاحات الاقتصاية والاجتماعية فى عهد وزارة رياض باشا ، اصلاحات أخرى فى المجال الثقافى والتعليمى ٠ وكان من أبرزها اصلاح الوقائع المصرية « الجريدة الرسمية » ٠٠ وانشاء مجلس للتعليم ، وانشاء دار الكتب العربية (الكتبخانة العربية) ٠

وكنتيجة للتعاطف المبدئى بين رياض باشا والأستاذ الامام ، أو بعبـــارة أخرى كان لتعاطف الامام مع الاصلاحات الاجتماعيــــة والاقتصادية فى عهد رياض باشا ان ساعد الشيخ محمد عبده فى جميع تلك الاصلاحات الثقافية والتعليمية ٠

---

(١) المرجع نفسه ص ٦٩ ٠

فلقد انتدبه رياض محررا فى الوقائع المصرية ، ثم سرعان ما أصبح رئيسا لتحريرها ، كما عينه عضوا بالمجلس الأعلى للمعارف ٠

لقد تحولت الجريدة المصرية الرسمية وقتئذ من جريدة تقوم أساسا بنشر أوامر الحكومة ، الى صحيفة تؤيد سياسيا وفكريا تلك الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية لوزارة رياض ٠٠ وراحت توجه انتقاداتها المتوالية لكبار الأعيان وكبار رجال الحكومة ٠

وأصابت تلك الانقادات أول ما أصابت من رجال الحكومة ، على باشا ابراهيم ناظر المعارف ، الذى يصفه الامام بأنه كان « بعيد الاحساس بحاجة الوقت » ٠

ونتيجة لهذا النقد ، الذى افتتح به الأستاذ الامام بداية حياته « الصحفية » أعفى وزير المعارف وتشكل المجلس الأعلى للمعارف ٠٠ ولقد كان نشر الشيخ محمد عبده الهادر القوى على صفحات الوقائع المصرية ، بداية الشعور لما يطلق عليه الامام « جامعة اللغة » بين الناس ويسرد الامام محمد عبده طبيعة تلك الاصلاحات الثقافية فى عهد وزارة رياض بقوله (وكان قد أحس « يقصد رياض » بتوجه الأفكار الى طلب شيء من طلاوة العبارة ووفرة المعنى وحسن الانتقاد٠ أما أوامر الحكومة وحدها ، فلم تكن ممن تحرك النفوس للاطلاع عليها فى الجريدة الرسمية ٠٠ ولم يكن فى الجريدة الرسمية وراء أوامر الحكومة الا مدائح الخديو وبعض كبار الحكام على الطريقة القديمة وهذا مما كان ينفر من رؤيتها فطلب رياض باشا وسيلة لتغيير طريقة التحرير ، ورغب مع ذلك ان تكون يومية ، فهداه بحثه الى تعيين الكاتب « يعنى الامام نفسه » فى تحرير تلك الجريدة) (١) ٠

---

(١) المرجع نفسه ص ٧٢ ٠

ثم يرصد الامام نتائج تلك الاصلاحات فى الجريدة الرسمية بقوله (سهلت بذلك المواصلات بين الأنفس فى الأفكار وخف عليها التعبير عما فى الضمائر ·· ونشـــأ فى الناس نوع من الألفة ، أحدثه الشعور بجامعة اللغة ، وبعد ان كان نظر الواحد منهـــم لا يجاوز شخصه ، أصبح يشرف على فضاء يسع بنى أمته) (١) ·

كان نمو الشعور بجامعة اللغة وقتئذ بين بنى الأمة النواة الأساسية لفكرة القومية العربية ·· وكان هذا الشعور يظهـــر رويدا رويدا على صفحات الوقائع المصرية ، التى كانت تحرر أولا باللغة التركية ، ثم باللغة التركية والعربية معا ، ثم باللغة العربية وحدها ، وأخيرا بأسلوب الأستاذ محمد عبده الذى يتميز بطلاوة العبارة » و « قوة المعنى » و « حسن الانتقـاد » ·· وهى المعايير الكتابية التى حددها لاصلاح الوقائع المصرية ذاتها ·

كانت الدعوة الى اصلاح أساليب اللغة العربية ، الدعوة الى حسن انتقاد الحكومة ، وكذلك الدعوة الى البحث عن « المعانى » الوفيرة ، تستدعى جميعا العمل على تحرير الفكر من قيد التقليد وذلك بفهم الدين الاسلامى فهما جديدا ·

وكانت تلك هى الأركان الأساسية فى دعوة الاصلاح الدينى عند الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده أو كما يحدثنا بقوله (وارتفع صوتى الى أمرين عظيمين الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعه الأولى واعتباره من ضمن موازين العقل البشرى ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الانسانى وأنه على هذا الوجه يعد صديقا للعلم ، باعثا على البحث فى أسرار الكون ، داعيـــا الى

---

(١) محمد عبده · مذكرات الامام ص ٧٥ ·

احترام الحقائق الثابتة مطالبا بالتعديل عليها في أدب النفس واصلاح العمل · كل هذا أعده أمرا واحدا ، وقد خالفت في الدعوة اليه رأى الفئتين العظيمتين اللتين يتركب منهما جسم الأمة : طلاب علوم الدين ومن على شاكلتهم ، وطلاب فنون هذا العصر ومن هو في ناحيتهم · أما الأمر الثاني فهو اصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير سواء كان في المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها ، أو فيما تنشره الجرائد على الكافة ، منشأ أو مترجما من لغات أخرى ، أو في المراسلات بين الناس وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين ، كلاهما يمجه الذوق وتنكره لغة العرب ·· الأول ماكان مستعملا في مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده الى لغة من لغات العالم لافي صورته ولا في مادته ، ولايزال شيء من بقاياه الى اليوم عند بعض الكتاب من القبط ، ومن تعلم منهم ، غير انه والحمد لله قليل ، والنوع الثاني ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وان كان باردا ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس وان كان رديئا في الذوق بعيدا عن الفهم ثقيلا على السمع ، غير مؤد للمعنى المقصود ، ولا ينطبق على آداب اللغة العربية ·· وان كان يمكن رده الى أصول اللغة العربية في صورته ، لكنه لايعدو من أساليبها المرضية عند أهلها ، ولا يزال هذا النوع موجودا في عبارات المشايخ خاصة · ثم ورد علينا في آخريات الأيام ضرب آخر من التعبير كان غريبا في بابه ، وهو ما جاءنا من الأقطار السورية في جريدتي الجنة والجنان المنشأتين بقلم المعلم بطرس البستاني ، وهذا الضرب كان يعد من غرائب الأساليب ، وبه أنشئت جريدة الأهرام في مصر وقد محى أثره والحمد لله ·

وهناك أمر آخر كنت من دعاته ، والناس جميعا في عمى

عنه ، وبعد عن تعقله ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ٠ وما أصابهم الوهن والضعف والذل الا بسبب خلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة) (١) ٠

كانت تلك الاصلاحات الثقافية والفكرية مرتبطة بالاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى عهد وزارة رياض ، ولكن ليس معنى ذلك انها ترجع مباشرة الى اصلاحات رياض باشا فعلى الرغم من التعاطف المبدئى بين الامام ورياض باشا ، الا أن الشيخ محمد عبده كان على بصيرة بضيق الأفق التى اتسمت بها عقليته ٠٠ فكان رياض ينفذ سياسة الرأسمال الأوربى دون علم بعواقب اصلاحاته من الناحية الاجتماعية والسياسية ٠

ويصف الامام ضيق أفق رياض باشا بقوله (رياض باشا ذكى بالفطرة ، وقد اكتسب بالتجربة فى الأعمال الادارية مالم يكتسبه سواه ، ولكن معارفه جزئيات متفرقة يعوزها كلى يرجع اليه ، ولم يكن لديه علوم كلية ترد اليه الجزئيات ، فقد كان يقيس الجزئى على مثله وربما لا يكون بينهما جامع شبه تماما ، فيقع فى الخطأ ٠٠ فى رياض باشا همة وقوة وعلم لاتنكر ، ولكن قلما يحوط ذلك بالحزم وبعد النظر فى العواقب ليتجنب ما يكره منها ٠٠ فى رياض باشا مزية التفويض للعامل فى عمله ، ومنحه كمال الحرية فيه اذا وثق به ، ولكن ليس عنده قاعدة يبنى عليها ثقته ، فتارة يثق بالأذكياء العارفين وبالصادقين ، وتارة بأضدادهم) (٢) ٠٠ الخ الخ ٠

وان كان الامام يمجد الغاء رياض للسخرية ، الا أنه يأخذ عليه تجاهله لتحقيق رغبة الأمة فى تأسيس (الحكومة على قاعدة الشورى

(١) محمد عبده : مذكرات الامام ، ص ١٨ ، ١٩ ٠
(٢) المرجع نفسه ص ٨٢ ٠

ومنح بعض منتخبين من الأهليين حق المشاركة فى كليات أعمال الحكومة فى القضايا العامة) (١) ٠

ولكن تعاطف الامام مع اصلاحات رياض باشا ، كان يدفعه الى ان يتخذ موقف الحذر من اندفاع العرابيين بثورة قبل الآوان ٠٠ ولقد ظل تقديره لشخصية عرابى والمبادئه كامنا فى أعماقه طوال احداث الثورة العرابية ، وكان عرابى عند الأستاذ الامام (أجرأ اخوانه على القول وأقدرهم على اقامة الحجة) (٢) ٠

وفى الوقت الذى رأى فيـــه العرابيون ان الوقت قد حـان للتخلص من الاستبداد وتقرير حكومة شوريه ، رأى الامام ان الوقت لم يكن ملائما لثورة لم تستعد لهـــا البلاد بعد ٠٠ وعندما أصر العرابيون ، سأل الامام عرابى بقوله (وعلى من تعتمد ، فهمس (*) ٠٠ ان سلطان باشا قد عاهدنى على ان يجمع أعيـــان القطر من الوجهين) (**) (٣) ٠

وكان محمد سلطان باشا أحد الأسباب الرئيسية فى هزيمة العرابيين بالتل الكبير ، وذلك عندما تحالف مع الخديو والانجليز ضد الثورة بواسطة الجواسيس من العربان والأجانب ٠

لقد كان حذر الامام من تحالف عرابى مع كبـار الأعيـــان المصريين موضع « لجاجة » بينه وبين العرابيين ـ كمـــا يحدثنـا المرحوم الأستاذ المازنى ـ (حتى ضجوا وهددوه بالقتل اذا ظل

(١) محمد عبده : مذكرات الامام ص ٨٦ ٠
(٢) المرجع نفسه ص ٩٣ ٠
(*) يقصد عرابى ٠
(**) الوجه القبلى والبحرى ٠
(٣) المرجع نفسه ص ١٢٤ ٠

يعترض طريقهم ·· وأراد بعض العرابيين من أصدقاء الامام ان يصلح ما بينه وبينهم ، وأنا أعرف هذه القصة لأن الذى حـــاول اصلاح ذات البين من أقربائى ، ولأن بيت جـــدى كان هو مكان الاجتماع · وتكلم العرابيون وتكلم دعاة التوفيق ثم تكلم الشيخ محمد عبده ، فأصر على رأيه وأن العرابيين باندفاعهم سيجرون على البلاد الاحتـــلال الأجنبى ·· وكان أبى من رجال الأزهر ، ومن زملاء الشيخ محمد عبده فى الدراسة ومن تلاميذ السيد جمال الدين وان كان لم ينبغ كما نبغوا ــ فسأل الشيخ محمد عبده « أكنت تلج هذه اللجاجة فى عنادك مع العرابيين لو كان السيد جمال الدين فى مصر ؟ فكان جواب الشيخ محمد عبده « يا محمد (فقد كان أبى اسمه محمد) لو كان السيد جمال الدين هنا لما قامت الحركة العرابية ولا احتاج أحد اليها ، لأن السيد كان يغنى بشخصه عن كل ذلك » وتمثل بيت من رثاء المتنبى ·

كان من نفسه الكبيرة فى جيش   وان خيـــل انه انســـان

ولما استفحلت الحركة العرابية ، وضرب الأسطول الانجليزى الاسكندرية انضم الشيخ محمد عبده الى العرابيين ووضع يده فى أيديهم وكان ما خاف ان يكون ، فلم يسعه الا أن يكون مع قومه ــ ولو كانوا مخطئين ــ على الغريب وكان يتمثل بيت الحماسة ·

بذلت لهـم نصـــحى بمنعـــرج اللوى
فلم يستبينوا الرشـــد الا ضحى الغد

وهـــل أنـــا الا من غزيه (*) ان غوت
غويت وان ترشـــد غزيه ارشـــد) (١)

(*) اسم قبيلة عربية ·

(١) ابراهيم عبد القادر المازنى : أحاديث المازنى ، الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦١ · ص ١٠٠ ، ١٠١ ·

وعندما قامت الثورة العرابية انضم اليها الأستاذ الامام وكتب في الوقائع ما يؤيد عرابي ويدعو الى مســـاعدته بالنفس والمال ٠ ولما كون « عرابي » المجلس العرفي « للثورة » و « الجمعية العمومية » لقيادة البلاد ، قرأ الأستاذ الامام في احدى جلساتها قرار اتهام الأمة بمروق الخديو توفيق عن الشرع الحنيف والقانون المنيف ، ووقع على « عريضة الشعب » والأمة ببقاء عرابي وزيرا للحربية ومساندة العلماء والأعيان له ٠ وبعد هزيمة الجيش في التل الكبير ، قبض على الأستاذ الامام مع من قبض عليهم من زعماء الأمة لمحاكمتهـــم وأودع السجن لمدة ثلاثة أشهر ، ثم حكم عليه بالنفى الى بيروت ثلاث سنوات ، فاقام هناك مدرسا بمدرسة جمعية المقاصد الخيرية للأدب والتوحيد ٠

وقد نظم أثناء سجنه بالقاهرة قصيدة طويلة تبلغ نحو مائة وخمسة عشر بيتا وصف فيها الثورة العرابية وموقفه منها وقد جاء في مطلعها :

مالى يعنف قلبى من تغاضيـه	**دهر يبالغ فى عجب وفى تيه**
ابيت ليـلى كملسوع تســاوره	**زرق الأفاعى وقد شدت أيايديه**
وماذنوبى لدى دهرى سوى شمم	**تابى الدنايا وافكار تضاهيـه**
سويت للمجد هونا على ذى عجل	**على اساس من التقوى أراعيـه**
مجدى بمجد بلادى كنت أطلبه	**وشيمة الحر تابى خفض أهليه(١)**

كما وضع فى بيروت رسالته العلمية القيمة «رسالة التوحيد» ٠٠ وأخذ فى شرح كتاب نهج البـــلاغة للشريف الرضى ، وشرح مقامات بديع الزمان الهمزانى ثم فر بعد ذلك الى باريس حيث

(١) محمد عبده : مذكرات الأستاذ الامام ٠ ص ١٦٦ ٠

التقى بأستاذه الجليل السيد جمال الدين الأفغانى ، ليبدأ مرحله جديدة من نضاله الفكرى والسياسى تحت راية (العروة الوثقى)..

وكان الأستاذ الامام فى شرحه لنهج البلاغة وفى وضعه لرسالة التوحيد وفى مشاركته بالتحرير فى العروة الوثقى ، يدعم ويعمق الأركان الثلاثة لدعوته الاصلاحية فى أساليب اللغة العربية ، وفى تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفى التمييز بين ما للحكومات من حق الطاعة على الشعوب ، وما للشعوب من حق العدالة على الحكومات.

(ب)

لم تكن حركة الاصلاح الدينى عند الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده قاصرة على مجرد اصلاح العقيدة الدينية ومادخلها من البدع والخرافات ... فلم يكن الامام كما يتوهم بعض الدارسين مصلح دينى ، بل هو مصلح فكرى وسياسى معا .. (كان باعث النهضة فى العالم الاسلامى وهو الشيخ محمد عبده مصلح عقيدة لا مصلحا اجتماعيا والنمو التاريخى الذى حدث فى العالم الاسلامى هو ثمرة مدارس العقيدة) (١) .

ولكن الوقائع التاريخية تؤكد على أن حركات الاصلاح الدينى سواء فى الشرق الاسلامى أم فى الغرب المسيحى ، كانت مرتبطة ارتباطا عضويا بالحركات الاجتماعية والسياسية ، وانها لم تكن قاصرة على مجرد اصلاح العقيدة الدينية ذاتها فحسب .

لقد تحدث الشيخ محمد عبده عن ميلاد الشعور « بجامعة اللغة » بين بنى الأمة بعد اصلاح جريدة الوقائع المصرية ، التى

(١) مالك بن بنى : فكرة الأفريقية الآسيوية : ترجمة عبد الصبور شاهين . مكتبة دار العروبة . القاهرة ١٩٥٧ ص ٢٦٤ .

عكست وقتئذ الاصلاحات الاجتماعية والاقتصادية فى عهد وزارة رياض باشا ... ولقد عبرت حركة الاصلاح الدينى عند الامام عن فكرة (القومية العربية ويقظة المشاعر العربية) (١) .

ولقد تولدت تلك المشاعر القومية بعد فترة طويلة من الكبت السياسى والفكرى والأدبى ، وهو الكبت الذى كانت تمارسه الدولة العثمانية تجاه ثقافة وآداب البلاد العربية والاسلامية التابعة لها ، وترجع الأهمية الكبرى لحركة التجديد فى الاسلام الى (كونها لم تقتصر على بعث القومية العربيـة فحسب بل لانها شملت العـالم الاسلامى كله) (٢) .

لم تكن حركة الاصلاح الدينى فى الاسلام اذن مجرد حركة قاصرة على تجديد الدين كعقيدة تخص الضمير الانسانى فحسب ، بل كانت فى الواقع حركة عامة شملت الاصلاح الاجتماعى والسياسى والأخلاقى للمجتمعات الاسلامية عامـة والعربية خاصـة . وهذا مما دفع اللورد كرومر الى أن يستنتج أو يتوهم (أن الاسلام لايمكن تجديده ، أو بعبارة أخرى ، ان الاسلام عند تجديده لايمكن أن يكون امتدادا للدين الاسلامى ، ولكنه سيصبح شيئا آخر) (٣) .

وهو اذ يصرح بذلك لم يقدر له أن يفهم ان الاسلام عقيـده وشريعة معا ولكى نستوعب جيدا الأساس الموضوعى ، أى الاجتماعى والسياسى لحركة الاصلاح الدينى فى الشرق فى القرن التاسع عشر، يجب أن نرجع القهقرى ولو قليلا الى حركة الاصلاح المسيحى فى أوربا ابان نهضتها .

(١) Khaldun, S. Al Husry : Three Reformers. Beirut, 1966, p. 119.

(٢) Marlowe, John : Arab Nationalism and British Imperialism, New York, 1961, p. 14.

(٣) The Earl of Cromer : Modern Egpyt, 1908, Vol 1, p 299.

فلقد ارتبطت حركة الاصلاح الدينى فى المسيحية بنفس العوامل الاجتماعية والسياسية التى صاحبت حركة الاصلاح الدينى فى الشرق حيث (شهد الشرق الأوسط هبات قوية من الدعوة للاصلاح كهذه الهبات التى شهدتها أوربا فى بداية نهضتها وصحبت حركة الاصلاح الدينى حركة الاصلاح المادى وجاءت فى اعقابها ، لم يكن هذا جديدا على الحضارة وعطور الوجود الانسانى ٠٠٠ فلقد قامت النهضة الأوربية على اصلاح تعاليم الكنيسة وتنقية المسيحية من الشوائب التى كدرت صفاءها ٠٠ فانبسطت سيادة العقل وانبسط سلطان التفكير الحر ، واتجه المفكرون الى البحث والتنقيب فيما سبق من آثار التفكير الاغريقى والرومانى) (١) ٠

لقد ارتبطت حركة الاصلاح الدينى فى أوربا بنمو الروح السياسية والقومية من ناحية ، ونمو الروح الاجتماعية المضادة للمصالح الاقطاعية من ناحية أخرى ٠

ويتضح لنا ذلك اذا القينا نظرة سريعة على تاريخ أوربا فى عصر النهضة ، وهو العصر الذى صاحب مرحلة انحلال النظام الاقطاعى الأوربى ونشؤ العلاقات البضائعية النقدية ٠ أى بزوغ العلاقات الرأسمالية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكان نمو تلك العلاقات الاجتماعية الجديدة ، نتيجة طبيعية للتغيرات العميقة فى القوى الانتاجية وقتئذ ٠٠٠ وأدت تطورات القوى الانتاجية الى نمو التجارة وازدياد شبكة الأسواق المحلية والعالمية ٠

فلقد تمكن التجار البرتغاليون والأسبان عن طريق الاكتشافات الجغرافية التى قام بها كلومبس « لامريكا » فى عام ١٤٩٢ م أن يكدسوا الكثير من الثروات النقدية التى ساعدت وقتئذ على تراكم

---

(١) د٠ حسين فوزى النجار : السياسة والاستراتيجية فى الشرق الأوسط ج ١ ص ٢٧٩ ٠

الرأسمال الأوربى . مما ساعد فى نهاية الأمر على التطور السريع للاقتصاد الرأسمالى .

وفى تلك الفترة ذاتها تشكلت القوميات فى القارة الأوربية ، وذلك لايجاد شكل سياسى جديد يستطيع السيطرة على تلك التطوارت العميقة التى حدثت فى المجال الاقتصادى ولم يكن هذا الشكل السياسى الجديد الا الحكم الملكى المطلق .

ولقد وقعت تلك الظروف التاريخية التى صاحبت عصر الصراع بين البرجوازية الناشئة والاقطاعية الآخذة فى الانحطاط أمام التاريخ الأوربى مهمة اصلاح الدين المسيحى ليتكيف مع المصالح البرجوازية الجديدة وتم الانتقال وقتئذ من الكنيسة الكاثولكية التى تعبر عن المصالح الاقطاعية بصورة أو بأخرى الى كنيسة جديدة وهى الكنيسة البروتستانتيه التى راحت تعبر عن مصالح الطبقة البرجوازية الناشئة .

يمكننا أن نلمس بعض التشابه بين مبادىء الكنيسة البروتستانتية والمبادىء التى قامت عليها بعض الحركات الاصلاحية الدينية فى الشرق الاسلامى . كالحركة الوهابية على سبيل المثال ، والتى تأثر بتعاليمها الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وهى التعاليم التى كانت منتشرة فى مصر بين أواسط الناس منذ أيام الحملات التنكيلية التى قام بها الوالى المصرى : محمد على وأبنه ابراهيم ضد الوهابيين فى الجزيرة العربية . ففى (مصر شب الشيخ محمد عبده فرأى تعاليم ابن عبد الوهاب ، تملأ الجو ، فرجع الى هذه التعاليم فى اصولها من عهد الرسول الى عهد ابن تيمية ، الى عهد ابن عبد الوهاب ، وكان أكبر أمله أن يقوم فى حياته للمسلمين بعمل صالح ، فأداه اجتهاده وبحثه الى هذين الأساسيين اللذين بنى عليهما محمد بن عبد الوهاب تعاليمه وهما :

١ ـ محاربة البدع ومادخل على العقيدة الاسلامية من فساد باشراك الأولياء مع الله تعالى ٢ ـ فتح باب الاجتهاد الذى أغلقه ضعاف العقول من المقلدين · وجرد نفسه لخدمة هذين الغرضين ، ولكنه امتاز بميزة كبرى عمن عداه ، وهى ثقافته الواسعة الدينية والدنيوية) (١) ·

وكما اعتبرت الكنيسة البروتستانتية « الكتاب المقدس » المصدر الوحيد للمعرفة وعليه أنكرت عصمة « بابا » روما فى شئون العقيدة الدينية · كذلك أعتبرت الدعوة الوهابية « القرآن » و « السنة » بمثابة المصدرين الوحيدين لمعرفة الحقيقة ، وعليهما انكرت الدعوة الوهابية عصمه « أولياء الله » فى شئون العقيدة الدينية · كما أنكرت محاولات الابتزاز لبعض رجال الدين الاسلامى ، وهو نوع من الابتزاز الذى يتشابه مع « صكوك الغفران » التى كانت تبيعها الكنيسة الكاثولكية لجمع مبالغ طائلة من الأموال الى خزينة البابا · الأمر الذى دفع بالمصلح الدينى مارتن لوثر Luther (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) للقيام باحتجاجه الشديد ضد صكوك الغفران · وهى احتجاجات تضمنت فى الوقت ذاته الكثير من الأمانى الاجتماعية للشعب الألمانى · الذى تقبل اصلاحات مارتن لوثر بوصفها أولا وقبل كل شيء آخر مطلب عادل للتحرر الاجتماعى ·

وعن تلك الأسس الموضوعية التى صاحبت دعوة لوثر الاصلاحية بقول الأستاذ سلامة موسى فى كتابه « الثورات » :

(ولكن المجتمع الذى كان « يقصد لوثر » يعيش فيه كان جديدا بالمقارنة الى مجتمعات القرون الوسطى ، وكان يحس وجدانا جديدا يكدر عليه ولاءه للكنيسة الكاثولكية ، فقد رأى اكتشاف

---

(١) أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث · مكتبة النهضة المصرية ١٩٤٨ · ص ٢٣ ·

القارة الأمريكية وعمره تسع سنوات ، وتحقق للعالم أن الأرض كروية ، وسمع عن النهضة الايطالية ودعوتها البشرية • ثم كان يحس بزوغ الوطنية الألمانية التى تناقض السلطة العالمية للكنيسة البابوية ، ثم كانت هناك دوافع جديدة ، تقول بأن يكون لكل شعب لغة دون اللغة اللاتينية العامة •

وكان الكتاب المقدس لا يقرأ الا فى اللغة اللاتينية بحيث لم يكن يفهمه عامة الشعب من الألمان والفرنسيين أو الانجليز ثم كان للكنيسة من الأوقاف ما كان يبعث الحسد عند أبناء شعبه الألمان • كان « لوثر » يحس هذه الاحساسات الجديدة غامضة مضطربة فى نفسه ، ولكنها انفجرت واستضاءت عندما اشتعل الثقاب) (١) •

لقد صاحب تطور القوى الانتاجية فى بداية عصر النهضة الأوربية تطورات هائلة فى العلوم الطبيعية ، كعلم الفلك والميكانيكا •• الخ ويمكننا أن نقارن تحقيق « لوثر بأن الأرض كروية نتيجة اكتشاف كوبر نيكس وجاليليو ، بتحقيق الأفغانى فى كتابه « الرد على الدهريين » بأن العالم خاضع لنظرية التطور كما صاغها داروين •

ونستطيع أيضا أن نلمس نفس الاحساسات الغامضة والمضطربة عند محمد عبده وتلاميذه عندما دعوا الى أحياء الثقافة العربية والفكر العربى بصفة عامة (فلقد دعا محمد عبده وأتباعه الى مقاومة حركة « تتريك » الشعوب العربية من قبل الامبراطورية العثمانية ، وذلك عن طريق احياء التراث العربى القديم وبيان دوره الهام فى تاريخ الشعوب الاسلامية ، وكذلك عن طريق احياء فكره القومية العربية ••• تلك الفكرة التى ظهرت بوضوح فيما بعد فى

---

(١) سلامة موسى : كتاب الثورات • دار العلم للملايين بيروت ط ٣ ١٩٦٣ • ص ٥١ ، ٥٢ •

أعمـال عبد الرحمن الكواكبى السورى الأصـل ، الذى يعتبر الأب الحقيقى للقومية العربية (١) ٠

ويؤكد الأستاذ سلامة موسى فى موضوع آخر ارتباط حركة الاصلاح الدينى فى المسيحية بالحركة السياسية القومية الأوربية ، والتى تجلت وقتئذ فى ترجمة الكتاب المقدس من اللغة اللاتينية الى اللغة الألمانية ، وهى المهمة التى قام بها لوثر نفسه (ومن لوثر هذا نشأت القوميات الأوربية ، فانه حين ترجم الكتاب المقدس من اللاتينية الى الألمانية جعل المسيحى « قوميـا » ورفع بذلك من شأن اللغـات القومية التى لم تكتب أو تدرس ، ونزلت اللغة اللاتينية عن مكانتها ، وظهرت اللغات الوطنيـة ، وأصبحت كل منها لغـة الدين والعلم والأدب ٠٠ فى حين صارت اللاتينية مغمورة مهملة) (٢) ٠

وفى عـام ١٥١٧ (انتصر مبـدأ القوميـات باعـلان لوثر البروتستانتية) (٣) ٠

وتتضح لنا مدى ارتباط حركة الاصلاح الدينى فى المسيحية بالتطورات الاجتماعية والاقتصادية اذا تأملنا قليلا بعض ملامح مذهب المبشر السويسرى جان كالفن Galvin (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) ٠ وهو المذهب الذى تجسدت فيه أفكار ومبادىء الكنيسـة البروتستانتية المعبرة عن تطلعات البرجوازية الأوربية الناشئة ٠

ولقد انتشرت مبادىء كالفن فى البلاد الأوربية التى كان تطور الرأسمالية يسير فيها بطريقة أسرع من غيرها وهى بلاد « الأراضى المنخفضة » التى تشمل أراضى بلجيكا الحالية وقسما من فرنسـا

---

(١) Lutsky (V) : Modern history of the Arab Countries, Moscow, 1969, p. 244.

(٢) سلامة موسى : ما هى النهضة ط ١ ١٩٦٢ ص ٩٧ ، ٩٨ ٠

(٣) سلامة موسى : حرية الفكر وأبطالها فى التاريخ ط ٣ ١٩٦١ ص ٥٧ ٠

والمانيا ٠٠ ولقد شهدت تلك البلاد قيام أول ثورة برجوازية عرفها التاريخ الحديث ٠ حيث تشكلت أول جمهورية برجوازية بأوربا فى عام ١٥٨١ فى هولندا ٠٠ واستطاعت أفكار المصلح الدينى كالفن ان تلهم الجموع الثائرة ، وان تحول « مملكة الله » الى « جمهورية » وان تسقط سيادة الملوك والاقطاعيين ٠

ويمكننا ان نلمس ملامح التطور التاريخى فى أقاليم الأراضى المنخفضة ، التى تتشابه الى حد ما مع التطور التاريخى للدول العربية لحظة ضعف الامبراطورية العثمانية وذلك من حيث التطور نحو الاستقلال السياسى والاقتصادى والثقافى ٠

فان أقاليم الأراضى المنخفضة قد (مرت هى الأخرى بدور التحرر (*) ، فكونت قوميات شأنها شأن كثير من المدن فى جنوب أوربا وشمالها ، واذا كان النبلاء قد اضطروا فى أول الأمر الى الخضوع لارستقراطية التجار والأثرياء ، الا أن هذه الطبقة الارستقراطية لم تلبث ان خضعت بدورها فى القرن الرابع عشر لنقابات أصحاب الحرف التى أسهمت بقسط وافر فى كثير من الحركات الشعبية ٠ وسرعان ما أدت هذه العوامل الى نوع من الفوضى وعدم الاستقرار مما جعل النبلاء والتجار يتحدون جميعا لمواجهة هذه الحركات التى هددت مصالحهم المشتركة) (١) ٠

ولقد استمرت تلك الصراعات الاجتماعية والاقتصادية خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وهى المرحلة التاريخية التى تشكلت فيها البرجوازية الأوربية لأول مرة على مسرح التاريخ الحديث ٠ وفى تلك الفترة التاريخية دخل النظام الاقطاعى الأوربى

(*) يقصد التحرر من سيطرة البرتغال والأسبان ٠

(١) د٠ سعيد عبد الفتاح عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ (التاريخ السياسى ط ٢ ١٩٦١ الأنجلو المصرية ٠ ص ٦٢٣ ٠

دائرة التاريخ والخلل والاضمحلال وبزغ عصر البرجوازية ، وراحت هذه الأقاليم من الأراضى المنخفضة تتخذ من الناحية السياسية طابع الدولة ، واتخذ رعاياهـا طابع الأمة · كما اكتسبت ثقافـة تلك الأقاليم شخصية مستقلة (ولا شـك فى ان توحيد هذه الأقاليم المتقاربة أعطاها طابع الدولة وأعطى أهلها طابع الأمة ، هكذا اتجهت الأراضى المنخفضـة نحو الابتعـاد سريعـا عن كل من فرنسـا والامبراطورية (*) لتكتسب حضارتها طابعا محليا ··· حقيقة ان هذه الحضارة التى شكلت تاريخ الأراضى المنخفضة كانت فرنسية فى أصلها وعناصرها ولكنها أخذت تتشرب عناصر جديدة ألمانيـة وبرجوازية لتكتسب شـخصية قائمـة بذاتهـا فى الميـدان الحضارى) (١) ·

لن هذا التشابه الواضح بين حركة الاصلاح الدينى فى أوربا أثناء القرن السادس عشر وبين حركة الاصلاح الدينى فى الشرق خلال القرن التاسع عشر ، قد جعل كلا من الأفغانى ومحمد عبده يأملان القيام بدور مشابه لدور لوثر ·· يقول الأفغانى فى خطراته (لابد من حركة دينية ، وهى اهتمامنا بقلع ما رسخ فى عقول العوام ومعظم الخواص من فهم بعض العقائد الدينية والنصوص الشرعية على غير وجهها الحقيقى ، وبعث القرآن ، وبث تعاليمه الصحيحة بين الجمهور وشرحها على وجهها الثابت من حيث يأخذ بهم الى ما فيه سعادتهم دنيا وآخرة ··· واننا لو تأملنا فى سبب انقلاب حالة عالم أوربا من الهمجية الى المدنية نراه لا يتعـدى الحركة الدينية التى قام بها « لوثر » وتمت على يديه ، فان هذا الرجل الكبير لما رأى شعوب أوربا ذلت وخمدت شهامتها من طول ما خضعت لرؤساء الدين ، ولتقاليد لا تمت بصلة الى عقل أو يقين قام بتلك الحركة

(*) امبراطورية شاركمان التى انقسمت الى قسمين بين كل من فرنسا والمانيا ·
(١) المرجع نفسه ص ١٢٣ ، ٦٢٤ ·

الدينية ودعا اليها أمم أوربا باصرار وعناد والحاح فأصلح بذلك خلافهم وقوم اعوجاجهم وطور عقولهم ، ونبههم الى أنهم ولدوا أحرارا فلماذا استعبدهم المستعبدون • وقد نشأن عن نشوء « البروتستانتية » في أوربا مباراة ومسابقة بينها وبين عدوتها « الكاثوليكية » فجعل كل فريق يرقب الفريق الآخر ويرصد أعماله ويحصي عليه حركاته وسكناته مخافة أن يسبقه الى القوة والعزة والغلبة والارتقاء في مدارج المدنية ، فكان كل منهما يسعى ويجد ويبذل مبلغ طاقته لاستجماع وسائل الرقي والتفوق على نده ومناظره ، ومن هذه المنافسة بين الفريقين تولدت المدنية الحديثة التي نراها ونعجب بها) (١) •

ولم تكن المدنية الأوربية الحديثة نتيجة ـ كما تصور الأفغاني ـ للمباراة والمسابقة بين البروتستانتية والكاثوليكية ، ولكن ـ كما سبق أن رأينا ـ فان هذا الصراع بين الكنيستين قد كان جزءا من صراع جبار بين الاقطاعية والبرجوازية الأوربية •
ولقد شهد الشرق الاسلامي أيضا صراعا اجتماعيا جبارا بين الاقطاعية العثمانية والبرجوازية التي غرستها الدول الأوربية في البلاد الشرقية • ولقد أدى هذا الصراع كذلك الى نمو الروح القومية من ناحية ، ونمو الروح الاجتماعية المضادة للمصالح الاقطاعية من ناحية خرى •

وكانت التحولات الرأسمالية في مصر في عهد رياض باشا ، أحد صور هذا الصراع بين الاقطاعية الشرقية والبرجوازية الأوربية، فالاصلاحات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها مصر وقتئذ كانت ترمي الى الحد من سلطة كبار الأعيان المصريين وهم الممثلون للاقطاعية المصرية • كما كانت تلك الاصلاحات الاجتماعية تهدف

---

(١) جمال الدين الأفغاني : خطوات جمال الدين والأعمال الكاملة باشراف محمد عمارة دار الكاتب العربي • القاهرة ١٩٦٨ • ص ٢٣٨ •

الى تشجيع الطبقة الوسطى المصرية حيث ألغيت من على كاهلها العديد من الضرائب ، وكان خير ممثل لتلك الطبقة : التجار وأصحاب الحرف اليدوية وصغار الزراع ۰ ورافق هذا النمو الاجتماعى للطبقة الوسطى المصرية نمو الروح القومية وهو ما كان يعبر عنه الشيخ محمد عبده بنمو الشعور « برابطة السلطة » بين « بنى الأمة » ۰

بيد أن التحولات البرجوازية فى المجتمع المصرى فى عهد وزارة رياض باشا ، كانت مرحلة عليا من تطور الصراع بين الاقطاعية الشرقية والبرجوازية الأوربية ، أو كانت تعميقا لمرحلة تاريخية سابقة ۰

ولا نريد أن ندخل فى تفصيل واسع لما يعرف فى الأدب السياسى بالقضية الشرقية أو المسألة الشرقية فى القرن التاسع عشر ۰ وهى القضية التى شغلت المحافل السياسية والدبلوماسية الأوربية منذ القرن الثامن عشر وذلك عندما بدأت الحروب بين تركيا وروسيا فى أعوام (١٧٦٨ ـ ١٧٧٤) حيث اتضحت أهمية مداخل البحر الأسود : الدردنيل والبسفور للتجار الروس ۰ ومع تطور الرأسمالية اللاحقة فى القرن التاسع عشر تزايدت أطماع الدول الأوربية الكبرى كفرنسا وانجلترا فى بلاد الشرق الاسلامى۰

ويصور الأستاذ عباس محمود العقاد فى كتابه « الاسلام فى القرن العشرين » حاضره ومستقبله « الاطار السياسى والاجتماعى للتغيرات الاجتماعية فى الشرق الاسلامى فى بداية القرن التاسع عشر بقوله : (انقسم العالم فى بداية القرن التاسع عشر الى حضارة حديثة فى الغرب وحضارات قديمة فى الأقطار الآسيوية والافريقية ۰ وكان المسلمون ـ الا القليل منهم ـ فى هذه الأقطار قد تخلفوا عن ركب الحضارة فى الصناعات والمخترعات والعلوم الحديثة ، وأصابهم هذا التخلف فى مرافقهم جميعا ومنها الزراعة

والتجارة التى كان قوامها الأكبر على الملاحة الشراعية ، فتراجعت شيئا فشيئا أمام ملاحة البخار • ولما تقدمت مرافق الصناعة والتجارة فى الغرب تقدمت معها وسائل التنظيم والادارة ، وبقى الشرقيون جميعا ، والمسلمون منهم ، متخلفين فى هذه الوسائل » (١) •

ان السمات المعطاة هنا للشرقيين هى سمات المجتمعات الشرقية الاقطاعية كما أن السمات المعطاه هنا للغربيين هى سمات المجتمعات البرجوازية

كان المجتمع الاقطاعى فى الشرق الاسلامى يتراجع أمام المجتمع البرجوازى أو أمام عصر البخار والصناعة المتقدمة • ولقد تمكنت الدول الأوربية من فرض امتيازاتها على المجتمع العثمانى الممثل التقليدى للأقطار الاقطاعية فى الشرق • وسرعان ما استجابت بعض العناصر التركية من طراز « رياض باشا » فى مصر للاصلاحات والتنظيمات الأوربية ، فلم تجد فرنسا وانجلترا (صعوبة فى اقلاق الدولة العثمانية لأنها كانت تستخدم سلاح الامتيازات الأجنبية حين تشاء وكان القرن التاسع عشر عصر الحركات الوطنية فى بلاد المغرب والمشرق ، فلم يكن من العسير على تلك الدول أن تجد المطاوعين لها فى ثورتها على الحكم التركى سواء من المسيحيين وغير المسيحيين ، ومنهم مسلمون يطلبون الاستقلال أو ينقمون على الادارة التركية) (٢) •

وكان عصر « التنظيمات الدستورية » أو ما يطلق عليه فى الآداب التركية عصر « المشرطية » قد بدأ قبيل منتصف القرن التاسع عشر كوسيلة لدفع تركيا الى الدخول فى مجال الاصلاحات

(١) [illegible]/ الاسلام فى القرن العشرين : حاضره ومستقبله • مطبعة دار التاليف بمصر ١٩٥٤ • ص ٥٠ •

(٢) المرجع نفسه ص ٥٢ •

الاقتصــادية والاجتماعية البرجــوازية . وللدخول أيضا فى عصر التجــارة الحرة » ٠٠ ولقد اتخذت تلك الاصلاحات ــ كذريعة ــ شعار اصلاح أحوال المسيحيــين فلقد تمت التنظيمـات الدستورية بالدولة العثمانية (تحت تأثير واقعين أساسيين :

(أ) ضغط الدول الأوربيــة ومطالبتها باصــلاح أحــوال المسيحيين التابعين للدولة العثمانية ٠

(ب) اقناع رجال الدولة المستنيرين بضرورة اصلاح ماكينة الدولة وتجــديدها على أســاس اقتبــاس النظم الأوربيــة) (١) ٠

كانت الرأسمالية الأوربية فى مرحلة التجارة الحرة « تتغلغل فى الشرق ، محركة للاقتصاد الاقطاعى الى اقتصــاد رأسمالى مع احباط كل المحاولات الخاصة للاشراف على الاقتصاد المحلى سواء فى الزراعة أو فى الصناعة المحلية ٠٠ (فلقد أهبطت المعاهدات التى عقدها البــاب العــالى مع الدول الكبرى لفتح أبواب الامبراطورية العثمانية للتجــارة الحرة كل المحاولات التى قام بها محمد على للاشراف على زراعة مصر وتشجيع الصناعات المحلية فيها (٢) ٠

كانت التغييرات الاقتصــادية فى الشرق أثناء القرن التاسع عشر ، هى أساس كل التغييرات الأخرى من المجـالات السياسية والاجتماعية والثقـافية ٠ وكان جوهر هذا التغير الاقتصــادى هو الانتقال من الاقتصاد القائم على « المقايضة » وهو جوهر الاقتصاد

---

(١) ساطع الحصرى : البلاد العربية والدولة العثمانية ط ٢ بيروت ١٩٦٠ دار العلم للملايين ٠ ص ٩١ ٠

(٢) باتريك الوبريات : ثورة النظام الاقتصادى فى مصر : ترجمة خيرى حماد ٠ دار الكاتب العربى ٠ القاهرة ١٩٦٨ ٠ ص ٦٥ ٠

الاقطاعي الى الاقتصاد القائم على « النقد » ... وهو أساس الاقتصاد الرأسمالي أو البرجوازي (وهكذا سيطر الأجانب على الاقتصاد المصرى والمالية المصرية والحكومة المصرية ، ومهد ذلك للتدخل السياسي فالتدخل العسكرى فالاحتلال . وهكذا « تحرك الاقتصاد المصرى فى القرن التاسع عشر فأصبح اقتصادا قائما على النقد ، بعد أن كان أكثره قائما على المقايضة) (١) .

ولم تتم تلك التحولات الاجتماعية فى الشرق بدون حروب وصراعات سياسية ودبلوماسية ، ولم تظهر الاصلاحات الدينية والفكرية الا كرد فعل لصدمة الهزائم الحربية لجيوش المجتمع الاقطاعي ، وهى الجيوش التى لم يكن أمامها غير التراجع المستمر أمام الجيوش الأوربية ذات العداد الحربى القائم على منجزات الصناعة الأوربية .

ان تحول الامبراطورية العثمانية نحو الحضارة الغربية كان نتيجة طبيعية للصدمات التى شعر بها الأتراك اثر هزائمهم المستمرة فى الحروب بينهم وبين روسيا القيصرية التى بدأت من منتصف القرن الثامن عشر الى ما بعد منتصف القرن التاسع عشر .

(ان الصدمة التى شعر بها الأتراك على اثر اندحارهم فى الحرب الروسية ـ التركية (١٧٦٨ ـ ١٧٧٤) هى التى أوحت بالاصلاح العسكرى الذى دشنه السلطان سليم الثالث سنة ١٧٨٩) (٢) .

وفى أثناء الحرب التركية ـ الروسية فى عام ١٨٧٦ ـ والتى كانت نتائجها فى مصر ذات تأثير بعيد « المدى » حيث أوحت

---

(١) د. احمد عزت عبد الكريم وآخرون : دراسات تاريخية فى النهضة العربية الفصل السادس (مصر) ص ٥٥٧ .

(٢) توينبى (ارنلد) : العالم والغرب : تعريف نجده هاجرو سعيد العز . المكتب التجارة ـ بيروت ط ١ ١٩٦٠ ص ٢٧ .

للمصريين بفكرة الحياة النيابية والدستورية ـ أرغم السلطان التركى على اعلان دستور للبلاد العثمانية ·· وهو الدستور الذى اقترحت ثورة ١٩٠٨ بتركيا اعادته (فقد اقترحت ثورة ١٩٠٨ اعادة دستور سنة ١٨٧٦ الذى كان يقول بوجوب انشاء مجلس نيابى على الطراز الغربى وكان قد أهمل مباشرة على يد السلطان الرجعى عبد الحميد الثـــانى) (١) ·

واذا أخذنا بنظرية توينبى عن التطور التاريخى القائمة على مبدأ « التحدى والاستجابة » ·· فان الاصلاحات الدينية والسياسية فى الشرق كانت استجابة للتحدى الرأسمالى ، وهذا ما يأخذ به أيضا الأستاذ العقاد اذ يقول (ان هزائم تركيا وايران ومراكش ومصر كانت هى نقطة التحول فى تواريخ تلك الأمم ، وان الجامدين على القديم لم يؤمنــوا بضرورة التحـول الا بعد هزيمة من هـذه الهزائم ·· تبين من « رد الفعل » الذى أعقب هـذه الهزائم أن « العالم الاسلامى » لم يزل بنية حب تستجيب للمؤثرات وتستبقى منها ما صلح وأجدى) (٢) ·

وهذا صحيح ، ولكن ثمة استجابات مختلفة ·· لقد استجابت الحركات الاصلاحية الدينية فى الاســلام للتغيرات الاجتماعية فى الشرق منذ منتصف القرن التاسع عشر ، ولكنها عارضت فى أن تكون استجابتها لتلك التغيرات الاجتماعية مجرد خضوع ذليل أمام الأوهام الاستعمارية فى الحرية والحضـــارة ··· ففى الاســــلام (عارض الوهابيون والسنوسيون والمهديون وغيرهم من الشيع التى طلعت من الصحراء ولم يكتفوا بذلك بل شنوا حربا مقدســـة على الأتراك المارقين الذين خانوا الاسلام بتقليــدهم الغرب فى نظـر هؤلاء المتعصبين) (٣) ·

(١) المرجع نفسه · ص ٣٠ ·
(٢) العقاد : الاسلام فى القرن العشرين · ص ٩٩ ·
(٣) توينبى : العالم والغرب · ص ٨٧ ·

ولكن ، هؤلاء المتعصبين لم يشنوا حروبهم المقدسة على الأتراك لمجرد أنهم خانوا الاسلام بتأييدهم للحضارة الغربية ، فمحمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣ – ١٧٩١) لم يقاتل الأتراك الا لنيل حرية الجزيرة العربية من قبضة السيطرة التركية والعمل على توحيد البلاد العربية (ولولا ان الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب وحاربوه فى داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها لكان من المرجو جدا أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر كما وحد ظهور الاسلام كلمتهم فى القرن الأول) (١) ٠

لم تكن التغيرات الاجتماعية والسياسية فى القرن التاسع عشر وقفا على « العالم الاسلامى » ، أو الشرق الأوسط ، فلقد امتدت التغيرات البرجوازية الى الهند واستجاب لها أيضا بعض المصلحين من مسلمى الهند كالسيد أحمد خان ، الذى كانت دعوته بين مسلمى الهند تتشابه مع دعوة الأستاذ الامام فى مصر (فلم يكن الشيخ محمد عبده مبدعا فى هذا الاتجاه ، فمثله فى ذلك كان السيد أحمد خان المصلح العظيم فى الهند ، فقد رسم خطته أن يصلح الشئون الاجتماعية والدينية لمسلمى الهند مع مسالمة الانجليز حتى لا يحاربوه فى اصلاحه) (٢) ٠

واذا انتقلنا الى عالم أبعد قليلا من دائرة العالم الاسلامى ، كاليابان والصين وبقية بلاد الشرق الأقصى نجد أن تغلغل الرأسمالية الأوربية فى القرن التاسع عشر ، قد فرضت على شعوب الشرق الأقصى الاستجابة للاصلاحات الاقتصادية والسياسية المعادية لروح الاقطاعية الشرقية ٠ (ففى القرن التاسع عشر كان

---

(١) د٠ طه حسين : ألوان ٠ ط ٣ دار المعارف بمصر (بدون تاريخ) ص ٤٣ ٠

(٢) أحمد أمين : زعماء الاصلاح ٠ ص ٣١٤ ٠

الغربيون مسرورين برؤية الصين واليابان اللتين رفضتا من قبل الحضارة الغربية تقبلاتها (*) بشكلها العلمانى ، حيث حل التكنيك محل الدين فى موضع الصدارة ۰ وثورة « ميجى » فى اليابان سنة ۱۸٦۰ وثورة « كومتنانغ » فى الصين ۱۹۲۰ بدتا فى ذلك الوقت كأنهما انتصار للحضارة الغربية العلمانية الحديثة) (۱) ۰

لقد كانت التغيرات الاقتصادية والنيابية فى الشرق مصدر الهام كبير لنمو الرأى العام المصرى ــ ويكفى أن نشير هنا الى حماس مصطفى كامل بالنمو السياسى فى اليابان ، وما كتبه عن بلاد « الشمس المشرقة » ۰۰ بعد انتصارها على روسيا فى الحرب الروسية ــ اليابانية فى عام ۱۹۰٤ ۰

كانت نهضة الشرق منذ منتصف القرن التاسع عشر ، تعنى من حيث الجوهر ، نهاية « الحكم المطلق » الاستبدادى ، الذى هو أحد سمات المجتمع الاقطاعى ، وكانت تعنى أيضا بداية الحياة النيابية ــ الدستورية ۰ وهذا مما ساعد على قبول الاصلاحات الاقتصادية الاجتماعية فى الشرق على انها خطوة الى الأمام بالنسبة الى المجتمع الاقطاعى ۰

ويجعل الأستاذ لطفى السيد التغيرات السياسية فى الشرق وتأثيرها فى الحركة السياسية المصرية ، بعد أن فند مزاعم المفكرين الانجليز فى قولهم بعدم مقدرة الشعوب الشرقية فى حكم ذاتها ۰ (انهم بعد الدستور اليابانى والدستور العثمانى والحركة الايرانية لا يزالون يحبون ما أمات العلم من قول قدماء اليونان : « خلقت الأمم بعضها للحكم وبعضها للطاعة » ليقولوا ان الشرق خلق للطاعة فلا يقدر الا الحكم الشخصى ليتدرجوا من هذا الى اثبات أن الأمة

(★) بعد الحرب التركية الروسية فى عام ۱۸۷٦ أعلن الدستور فى تركيا فى سنة ۱۸۷۷ ۰

(۱) توينبى : العالم والغرب ۰ ص ٦۷ ۰

المصرية لا تقدر الا الحكم الشخصى · ولذلك فهى غير مجمعة على طلب الدستور ··· ليست فكرة الدستور جديدة فى بلادنا ، فانه لما نشر الدستور العثمانى (*) فى سنة ١٨٧٧ سرت عدواه الى المصريين ، فاشتدت بهم الرغبة أن يقلدوا اخوانهم العثمانيين فى كسب الشرف القومى والخلاص من ذل الحكومة المطلقة ، تخمرت هذه الفكرة فى أدمغة بعض الأفراد من الأدة ، وبقيت تنتشر حتى صادفت فرصة مناسبة لانفجارها ، فانفجرت بقوة ووضوح فى الحركة العسكرية (**) (١) ·

هذا هو مجمل التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى الشرق أثناء القرن التاسع عشر ، وهى تتسم بخاصتين أساسيتين: احداهما تحول الاقتصاد الاجتماعى من اقتصاد زراعى يقوم أساسا على نظام « المقايضة » الى اقتصاد نقدى أو رأسمالى · والثانية تحول العلاقات الاجتماعية من علاقات اجتماعية يسيطر عليها كبار الأعيان والمالكين العقاريين ، الى علاقات اجتماعية جديدة تفسح المجال واسعا أمام فئات عريضة من التجار وأرباب الصناعة الحرفيين وغير ذلك من فئات اجتماعية تنتمى أساسا الى الطبقة الوسطى · أو ما يطلق عليها فى الأدب السياسى الحديث اسم « الطبقة البرجوازية » ··

ولقد استدعت التحولات الاجتماعية السابقة القيام بالاصلاحات الفكرية والدينية فى البلاد الشرقية · ويتمثل ذلك فى الاصلاحات الدينية والمطالبة بالحياة النيابية والدستورية وتحرير الفكر من قيد

(*) الحركة العرابية فى عام ١٨٨٢ ·

(**) بدأ الثورة فى ايران عام ١٩٠٥ وفى عام ١٩٠٦ اضطر الشاه الى اعلان وانشاء المجلس النيابى ·

(١) لطفى السيد : صفحات مطوية من تاريخ الحركة الاستقلالية فى مصر · مكتبة النهضة المصرية « بدون تاريخ » · ص ٤٩ ·

للتقليد ، وتقوية الشعور بما كان يطلق عليه الأستاذ الامام « جامعة اللغة » بين « بنى الأمة » ·· أى نحو الروح القومية ·

فالأساس الموضوعى أى الاجتماعى الحقيقى لحركة الاصلاح الدينى فى الاسلام فى القرن التاسع عشر يتفق اذن مع الأساس الموضوعى لحركة الاصلاح الدينى فى المسيحية فى القرن السادس عشر ·

ولكن الاتفاق الأساسى بين الحركتين ، لا ينبغى القول بأن ثمة فروقا خاصة بين تطور الدول الأوربية فى القرن السادس عشر ، والدويلات العربية فى القرن التاسع عشر ·

وبالطبع فان قوانين التطور التاريخى ، هى قوانين ذات سمات موضوعية عامة ، تنطبق على الشعوب سواء فى الشرق أو الغرب ، ولكن الاعتراف بعمل القوانين الموضوعية العامة فى سير الحركة التاريخية ، لا يوقف عمل القوانين الخاصة لهذا التطور أو ذاك ، وفى منطقة معينة من مناطق العالم دون سواه ·

والمتأمل فى نشأة النظام الاقطاعى وتطوره ثم انهياره فى أوربا الغربية ، يدرك الفروق العديدة بين تطور الاقطاعية فى الغرب ، وتطورها فى البلاد العربية أو الشرقية بصفة عامة · فمن حيث النشأة لم تكن الفترة الزمنية متوافقة تماما · بل لازلنا نرى أن بعض الشعوب الشرقية تعيش فى وسط من العلاقات الاجتماعية ، تتسم فى جوهرها بسمات المجتمع الاقطاعى ولم تكن الفروق بين تطور المجتمع الشرقى قاصرة على التطور فى المجال الاقتصادى والسياسى فحسب ، بل ثمة فروق آخرى فى المجال الفكرى والدينى ·

فلم تعرف الديانة الاسلامية تلك الصراعات المذهبية مثلما وجدت فى الديانة المسيحية بين الكاثوليكية والبروتستانتية · واذا كانت

اصلاحات « مارتن لوثر » قد أدت الى خلق مذهب جديد فى المسيحية، فان اصلاحات الأفغانى ومحمد عبده لم تصل الى هذا الحد ٠

وحيث أننا فى مجال الحديث عن الفروق الخاصة فى حركات الاصلاح الدينى الاسلامية والمسيحية فعلينا أن نلقى نظرة سريعة عن فروق أخرى فى « خطة » الاصلاح فى الدين الاسلامى بين الأستاذ جمال الدين الأفغانى وتلميذه الامام الشيخ محمد عبده ٠ وذلك لما لها من أهمية بالغة فى التطورات الفكرية اللاحقة ٠

كانت خطة الاصلاح لدى السيد جمال الدين تهدف الى وحدة العالم الاسلامى ، عن طريق « فكرة الخلافة الاسلامية » أو « الجامعة الاسلامية » ٠٠ وذلك بتأييد من الدول الاسلامية وحكامها ٠

وكان الشيخ محمد عبده يرى فى البداية مثل هذا الرأى ، ولكنه سرعان ما تبين له ان تلك الخطة لا تستقيم مع التطورات السياسية التى أعقبت هزيمة الثورة العربية ٠ ويبدو أنه قد فقد تماما فى زعامة الدولة العثمانية لفكرة « الجامعة الاسلامية » وذلك بعد ما تبين له من تحالف الدولة العثمانية مع الخديو توفيق والجيش الانجليزى على ضرب الحركة العرابية ورمى قائدها بتهمة « العصيان عن الطاعة « والمروق » عن الدين ٠

ذهب الأستاذ الامام يفكر فى خطة جديدة للاصلاح الدينى والاجتماعى والأخلاقى ، تعتمد أساسا على طاقة الأمم والشعوب الاسلامية والعمل على تربيتها تربية سياسية وترمى الى خلق رأى عام مستنير بين شعوب العالم الاسلامى ٠

ويصور الأستاذ عبد الرحمن الرافعى هذا الاختلاف فى خطة الاصلاح بين الأفغانى ومحمد عبده ، (ونقطة الضعف فى شخصيته هى تخلفه عن الكفاح السياسى ، واختلافه فى هذه الناحية مع أستاذه جمال الدين الأفغانى ، وقد بدأ انقطاعه عنه منذ عودته الى مصر

سنة ١٨٨٩ فترك أستاذه يعاني متاعب الكفاح السياسي وآلامه ومرارته، وكان من قبل عضده وساعده الأيمن وانك تلمح تراخي الصلات بينهما ، حتى الصلات الشخصية منذ أن عاد الى مصر حتى وفاة السيد جمال الدين ·· بل ان جمال الدين توفي سنة ١٨٩٧ م ، فلا تجد للأستاذ الامام كلمة في رثاء أستاذه الروحي والفلسفي وزميل جهاده في العروة الوثقى · وهذه الناحية هي أثر من آثار الاحتلال في أخلاق الأمة ونفسيتها) (١) ·

والحقيقة أن الأستاذ الامام لم يتوقف عن الكفاح بصفة عامة ، ولكنه ادرك ببصيرة نافذة ان مفهوم الكفاح السياسي عند أستاذة لايتفق والواقع السياسي ذاته · وذلك عندما امتزج مفهوم الكفاح السياسي عند الأفغاني — بالوعي أو باللاوعي — بمفهوم الخلافة الاسلامية ، أو الجامعة الاسلامية · في حين أخذ الامام بفكرة القومية المصرية · والتي تسعى الى أن يكون التحرير الوطني في مصر بجهد المصرين أنفسهم · لا بمساعدة الدولة العثمانية — وهي التي ثبت ادانتها في الثورة العربية — أو غيرها من الدول الأخرى ·

ومن المعروف أن الدولة العثمانية كانت تساند بنشاط بالغ فكرة « الجامعة الاسلامية » مرتدية في ذلك ثوب الدولة المدافعة عن الاسلام والشعوب الاسلامية ضد تطلعات الدول الأوربية المسيحية · وهو الأمر الذي أعاق تقدم فكرة القومية العربية (ان فكرة « الخلافة العثمانية » ساعدت كثيرا على استسلام العرب للحكم العثماني ، وأخرت كثيرا نشوء فكرة القومية في البلاد العربية) (٢) ·

---

(١) عبد الرحمن الرافعي : الثورة العرابية والاحتلال الانجليزي · ص ٥٢٥ ·
(٢) ساطع الحصري : ما هي القومية · دار العلم للملايين بيروت الطبعة الأولى ١٩٥٩ ص ٢٤٢ ·

ان تطور العلاقة الفكرية بين السيد جمال الدين والأستاذ الامام تتشابه مع تطور العلاقة الفكرية بين الأفغـاني والكواكبي فالكواكبي كان يمثل نفس النزعة القومية فى حركة الاصلاح الدينى بسوريا ٠ وهو أيضا من تلامـذة جمال الدين ، الا انه قد استطاع أن يتجاوز فكرة الجامعة الاسلامية كرابطة سياسية تجمع الشعوب العربية ٠

ويحدثنا صاحب كتاب « يقظة العرب » حول الاختلاف الجوهرى بين فكر الأفغانى والكواكبى قائلا (أما عنصر الابداع فى الدعوة التى حركها الكواكبى فهو تفريقه ما بين الحركة العامة التى تستهـدف الوحدة الاسلامية والبعث الاسلامى ، والتى تولى جمال الدين الافغانى أثارتها ثم سخرها عبد الحميد لاغراضه الخاصة ٠ ومما لاشك فيه أن الكواكبى تأثر بسلفه فهناك نقاط توافق بينهما فى الشكل وفى الأسس تدل على وجود رابطة وثيقة بين المفكرين ، ولكن بينما كان جمال الدين يعتبر عالم الاسلام جميعه ميدانا واحدا يجب توحيده تحت حكم خليفة واحد ولا يهتم بجنس ذلك الخليفة سواء كان تركيا أو أفغانيا أم مصريا مادام ــ قويا وسيدا فى داره) (١) ٠

ومما لاشك فيه كذلك أن محمد عبده قد تأثر بجمال الدين فى المجال الفكرى العام وإن ظلت هناك بعض الفروق الجوهرية فى خطة الاصلاح بين كل منهما ٠

وتتلخص تلك الفـروق فى ايمان الأفغانى بفاعلية الخلافـة الاسلامية كرابطة سياسية تجمع بين شعوب العالم الاسلامى تحت زعامة خليفة مسلم ، بينما كان الامام محمد عبده يرمى الى اصلاح سياسى واجتماعى ، يبدأ بتربية قادة وطنيين ، للعمل على رأى عام مستنير يستطيع فى يوم ما العمل على تكوين حكومة وطنية قادرة على

---

(١) جورج انطونيوس : يقظة العرب : تعريب على حيدر الركابى ٠ مطبعة الترقى : دمشق ١٩٤٦ ٠ ص ١٠٢

الكفاح السياسى ضد الاستعمار الأوربى . وعلى رفع مستوى الأمم الاسلامية من الناحية الاجتماعية الى مستوى المجتمعات المدنية الحديثة .

وعن تلك الاختلافات بين خطة الأفغانى ومحمد عبده فى الاصلاح الدينى والفكرى يقول جرجى زيدان فى كتابه « بناة النهضة العربية » (نشأ الشيخ محمد عبده نير البصيرة حر الضمير وربى فى الاسلام وتعلم علومه فشب غيورا عليه ، ثم أطلع على علوم الأمم لراقية من أهل هذا التمدن ودرس تاريخ الاجتماع ونواميس لعمران ، فرأى الاسلام فى حاجة الى نهضة ترفع شأنه وتجمع كلمته ، واتفق اجتماعه بالسيد جمال الدين الأفغانى فأخذ عنه الفلسفة والمنطق والحكمة الشرقية وكان جمال الدين غيورا على الاسلام راغبا فى جمع كلمته ورفع شأنه فتوافقا فى الغاية ولكنهما اختلفا فى الوسيلة لأن جمال الدين سعى فى ذلك عن طريق السياسة فأراد جمع شتات المسلمين فى أربعة أقطار العالم تحت ظل دولة اسلامية واحدة وقد بذل فى هذا المسعى جهده .. وكان الشيخ محمد عبده رفيقه فى كثير من مساعيه واطلع على دخائل أموره وعرف أسباب (*) حبوطه فعلم ان جمع كلمة المسلمين ورفع شأنهم عن طريق السياسة لايتيسر الوصول اليه فسعوا فيه عن طريق العلم ، فجعل همسة رفع منار الاسلام وجمع كلمة المسلمين بالتعليم والتهذيب وتقربهم من أسبات المدنية الحديثة ليستطيعوا مجاراة الأمم الراقية فى هذا العصر .. وكانت مساعيه من هذا القبيل ترمى الى غرضين رئيسيين : الأول تنقية الدين الاسلامى من الشوائب التى طرأت عليه ، والثانى تقريب المسلمين من أهل التمدن الحديث ليستفيدوا من ثمار مدنيته علميا وصناعيا وتجاريا وسياسيا ، فأهل العصبية الاسلامية يرون هذا التقريب مغايرا لما يرجونه من استقلال المسلمين بالجامعة السياسية ، لان مجاراة أهل التمدن

(*) كذا بالأصل .

الحديث بأسباب مدنيتهم وتسهيل الاختلاط بهم يضعف عصبية الاسلام على زعمهم ويبعث على تشتيت عناصره فيستحيل جمعها فى ظل دولة واحدة ٠ ولكن الشيخ محمد عبده كان يرى ذلك الاجتماع السياسى مستحيلا فى هـذا الحال ، فلم يشأ أن يضيع وقته كما أضاعه أستاذه وصديقه جمال الدين وأن يخسر فائده تقرب المسلمين من أسباب هذا التمدن ـ فسعى فى ذلك بما نشره من فتاويه المتعلقة بالربا ولبس القبعة ونحو ذلك مما يقرب المسلمين من الأمم الأخرى ويسهل أسباب التجارة) (١) (*) ٠

---

(١) جرجى زيدان : بناة النهضة العربية : كتاب الهلال مارس ١٩٥٧ ٠ القاهرة ص ٨٤ ، ٨٥ ٠

(*) يتبع فى الجزء الثانى ٠